جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

بلاغة التعبير بمادة(حفظ) في القرآن الكريم

إعداد

د/ أحمد عبد اللطيف أحمد الخويسكي
مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

(العدد الثامن والثلاثون)
(الإصدار الأول .. فبراير)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

بلاغة التعبير بمادة(حفظ) في القرآن الكريم.

أحمد عبد اللطيف أحمد الخويسكي
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: ahmedelkhwesky361@azhar.edu.eg

ملخص:
ترجع أهمية هذه الدراسة إلى الوقوف على بلاغة اللفظة القرآنية من خلال التعبير بمادة (حفظ) في القرآن الكريم، ومدى ملاءمة تلك المادة لسياقاتها المتنوعة، وما تفيض به من عطاءات؛ نظرًا لما تحمله تلك المادة من قوة الحفظ والتفقد والعناية، كما تهدف الدراسة إلى محاولة بيان وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم من خلال الإبانة عن دلالة التعبير بمادة (حفظ) في القرآن الكريم، حيث تنوعت تلك الدلالة داخل السياق القرآني، فدلّت على المواظبة على الصلوات، والاهتمام بها، وعلى النهي عن الحلف، وحفظ الأيمان والحدود، كما دلت على العفة والطهارة وحفظ الفروج، وعلى التعهد والعناية من الخالق بشأن السموات والأرض، وحفظ السماء من الشياطين المردة، كما دلت على الملائكة الحفظة التي تحفظ أعمال العباد، وعلى الرقابة والمحاسبة والمعاقبة، فضلًا عن العناية بالمحفوظ الذي هو القرآن الكريم، ودلت كذلك على العلم، وغير ذلك، كما خلصت الدراسة إلى عدة نتائج، منها: تنوع دلالة تلك المادة، وذلك على حسب السياق وقرائن الأحوال، كما ورد التعبير بمادة (حفظ) بصيغ مختلفة، وكل صيغة لها عطاؤها داخل السياق، فورد التعبير بصيغة اسم الفاعل، وصيغة المبالغة، وصيغة اسم المفعول، والمصدر، وبصيغة الماضي، والمضارع، والأمر، وكل هذا يعكس قضية إعجاز القرآن الكريم، ويثبت حقيقة أن كل كلمة في القرآن الكريم وضِعَت في مكانِها الملائِم لَها، مِمّا يستحيل استبدالها بغيرها، فضلًا عن تعدد القراءات القرآنية التي كان لها أبلغ الأثر في إثراء المعنى والدلالة.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، مادة (حفظ)، بلاغة التعبير، اللفظة القرآنية، السياق.

Eloquence of expression in the subject of (memorization) in the Holy Quran.

Ahmed Abdel Latif Ahmed Al-Khwiski
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Itay Al-Baroud, Al-Azhar University, Egypt.
Email: ahmedelkhwesky361@azhar.edu.eg

Abstract:
where the importance of this study is due to identifying the eloquence of the Qur'anic word through the expression with the subject (memorization) in the Holy Qur'an, and the suitability of that subject to its various contexts, and the abundant gifts it contains. Due to the power of preservation, inspection and care, this material carries,The study also aims to attempt to explain one of the aspects of the miraculous nature of the Holy Qur'an by clarifying the significance of the expression "memorization" in the Holy Qur'an, as that significance varied within the Qur'anic context, and indicated regularity in prayers, attention to them, the prohibition of swearing oaths, and keeping oaths. And the limits, as it indicates chastity, purity and preservation The private parts, and the commitment and care of the Creator regarding the heavens and the earth, and the preservation of the heavens from the rebellious devils, as it indicates the guardian angels who preserve the deeds of the servants, and the supervision, accountability, and punishment, as well as the care for what is preserved, which is the Holy Qur'an, and it also indicates knowledge, and other things,The study also concluded several results, including: the diversity of the meaning of that article, depending on the context and circumstantial evidence. The expression "memorization" was also mentioned in different forms, and each form has its meaning within the context. The expression was in the active participle form, the exaggerated form, and the active participle form , the infinitive, the past tense, the present tense, the imperative, and all of this It reflects the issue of the miraculous nature of the Holy Qur'an, and proves the fact that every word in the Holy Qur'an was placed in its appropriate place, making it impossible to replace it with others, in addition to the multiplicity of Qur'anic readings that had the greatest impact in enriching the meaning and connotation.

Keywords: The Holy Qur'an, subject (memorization), Quranic word, Context, Eloquence of expression.

مُـقـدمــةٌ

الحمد لله الذي أنزل كتابه فأعجز به الإنس والجان، وحَفِظَه من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أفصح العرب لسانًا، وأبلغهم حجة وبيانًا، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فاللفظة القرآنية غنيَّةٌ بمادتها ومعناها، وهي وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم بصيغتها، وهيئتها، وبنيتها التي جاءت عليها، لذا كان البحث عن بلاغة اللفظة القرآنية تحت عنوان" **بلاغة التعبير بمادة(حفظ) في القرآن الكريم**"، وقف الباحث فيه على مواطن التعبير بمادة (حفظ) في القرآن الكريم، في سياقاتها المتنوعة، والتي بلغت (أربعة وأربعين) موطنًا، مع محاولة استخراج الأسرار البلاغية المكنونة خلف التعبير بتلك المادة، لما لها من دلالات يكشف عنها السياق وقرائن الأحوال.

والمتأمل لمادة (حفظ) في القرآن الكريم يلحظ ورودها بصيغ متنوعة، فوردت بصيغة اسم الفاعل، واسم المفعول، والمبالغة، والمصدر، وبصيغة الفعل الماضي والمضارع والأمر، وكل صيغة لها دلالتها في الكشف عن معناها داخل السياق من حيث الثبوت والدوام، أو الحدوث والتجدد، أو المضي، وغير ذلك من الدقائق التي بين طيات المادة داخل سياقها، وكل هذا يعكس قضية إعجاز القرآن الكريم، ويثبت حقيقة أن كل كلمة فِي القرآنِ الكريم وضِعَت في مكانِهِا الملائِم لَها، مِمّا يستحيلُ استبدالها بغيرها.

وتتمثل أهمية الموضوع في بيان التلاؤم بين مادة (حفظ) وسياقاتها المتنوعة، ومحاولة الوقوف على بلاغة تلك المادة في كتاب الله(ﷻ)، حيث تحدث القرآن الكريم عن حفظ المخلوقات، فضلًا عن حفظ الدين والعقائد والعبادات، من خلال الأمر مباشرة بالحفظ، كالمحافظة على الصلوات والأيمان، أو بالتعبير بالمضارع والماضي، أو بصيغ المشتقات، كما دلّت تلك المادة على

الملائكة الحفظة، وعلى الرقابة والمحاسبة، فضلًا عن العناية بحفظ القرآن الكريم، كذلك دلت على الحفظ بين العباد، كالإخبار عن حفظ إخوة يوسف له أمام أبيهم، ومن بعده بنيامين، فحديث القرآن عن الحفظ حديث ذو شجون، فيه تنوع في عرض المادة بأساليب مختلفة تنعكس على السياق؛ لتأدية المعنى المراد، ومن هنا تظهر أهمية الموضوع؛ نظرًا لكثرة عطاءات المادة، وما تحمله من لطائف وأسرار داخل سياقها.

ومما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع ما يأتي:

أولًا: خدمة كتاب الله(ﷻ)، والوقوف على بلاغة مادة (حفظ) في القرآن الكريم، فهذه الدراسة وسيلة لغاية وهي محاولة بيان وجه من وجوه الإعجاز القرآني التي لا تنقضي.

ثانيًا: تنوع دلالة مادة (حفظ) في القرآن الكريم، وذلك على حسب السياق وقرائن الأحوال، مما جعلها محل اهتمام ودراسة.

ثالثًا: كثرة مواطن مادة (حفظ) في القرآن الكريم، حيث بلغت (أربعة وأربعين) موطنًا.

رابعًا: عدم وجود دراسة بلاغية حول بلاغة مادة (حفظ) في القرآن الكريم، مع كثرة عطاءاتها.

خامسًا: مدى الملائمة والتناسب بين مادة (حفظ) والسياق الذي وردت فيه.

– ولم يقف البحث على دراسة سابقة لمادة (حفظ) في القرآن الكريم في الدرس البلاغي، ولا غيره من الدراسات الأخرى.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

أما المُقدِّمةُ، فقد اشتملت على أهمية الموضوع ودوافع اختياره، والخُطةِ المُتبعة فيهِ، ومنهجِهِ.

وأما التمهيدُ: فاشتمل على بيان الدلالة المعجمية لمادة (حفظَ).

وأمَّا مباحث البحث، فهي كالآتي:

المبحثُ الأولُ: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق أهل الإيمان.

المبحثُ الثاني: بلاغة التعبير عن قدرة الله(ﷻ)، والملائكة بمادة(حفظ).

المبحثُ الثالثُ: بلاغة الإخبار عن النبي(ﷺ) وبعض القصص والأمور بمادة (حفظ).

ثم الخاتمة والفهارس.

أما عن المنهج المتبع، فقد اعتمدت الدراسةُ في سيرها على المنهج (الوصفيِّ التحليليِّ)، الذي يعتمد على جمع المادة ووصفها في النَّظم القرآني، ومحاولة الكشف عن بلاغتها في سياقاتها المتعددة، مع دراسة بعض العناصر التي أسهمت في إبراز المعنى والوقوف على بلاغة التعبير بتلك المادة.

وقد استقصى البحث مواطن مادة (حفظ) في القرآن الكريم بالدراسة، مع مراعاة ترتيب السياقات الوارد فيها المادة بحسب ترتيب أول مواطنه داخل المصحف الشريف، كما روعي الترتيب المُصحفي للمواطن داخل السياق الواحد، إلا في بعض المواطن التي بينها تشابه، أو جيء بها لأجل قضية معينة.

*****

تمـهـيـدٌ

دلالة مادة (حفظ) في المعاجم العربية.

تدور مادة (حفظ) في المعاجم العربية حول المواظبة على الشيء ورعايته والقيام عليه، وتعهده والعناية به.

قال ابن فارس: "الحاء والفاء والظاء أصلٌ واحدٌ يدل على مراعاة الشيء، يقال: حفظت الشيء حفظًا"(١).

وذكر السمين الحلبي أن " أصل الحفظ: المنع للشيء بتفقده ورعايته، ومنه حفظ الدرس، وهو منع ما تدرسه أن يشذَّ عنك، والحفظ تارة لهيئة النفس التي بها يثبت ما يؤدي إليه الفهم، وأخرى لضبط الشيء في النفس، ويضاده النسيان، وأخرى لاستعمال تلك القوة، فيقال: حَفِظتُ كذا حفظًا، ثم يستعمل في كل تفقد وتعهد ورعاية"(٢).

ثم ذكر عدة دلالات لمادة (حفظ) في القرآن الكريم، نظرًا لتنوع تلك الدلالات على حسب السياق الوارد فيه المادة، نحو قوله تعالى: "﴿ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ (النساء:٨٠) ، أي: حافظًا تحفظ عليهم أعمالهم...، وقوله تعالى: ﴿...فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ (يوسف: ٦٤)، أي: حفظه أبلغ من حفظ غيره؛ لعلمه بما بطن وظهر...وقوله تعالى: ﴿ ...فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ...﴾ (النساء: ٣٤)، أي:

---

(١) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (مادة: ح/ ف/ ظ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بدون.

(٢) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم)، للشيخ أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، المعروف بالسمين الحلبي، المتوفى سنة (٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود،(١/٤٣٢-٤٣٣)، بتصرف، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

يحفظن غيبة أزواجهنَّ فلا يوطئن فرشهنَّ غيرهم، وذلك بسبب حفظ الله إياهنَّ، وقُرئ (الله) نصبًا على معنى: بسبب رعايتهنَّ حق الله لا لرياء وتصنع منهنَّ... وقوله تعالى: ﴿ ...وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ ...﴾ (الأحزاب: ٣٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ (المؤمنون: ٥)، كناية عن العفة، وأصله منع أنفسهم من الوطء الحرام"(١).

وذكر ابن منظور أن " الحفيظ : من صفات اللَّه (ﷻ)لا يَعْزُب عن حفظه الأَشْياء كلَّها مِثقالُ ذرّة في السموات والأرض، وقد حفِظ على خلقه وعباده ما يعملون من خير أَو شرّ، وقد حفِظ السمواتِ والأرضَ بقدرته، ولايؤُوده حفظهما وهو العلـيُّ العظيم...، ابن سيده : الحِفْظ نقيض النِّسْيان وهو التعاهُد وقلَّة الغفلة"(٢).

فمادة حفظ في القرآن الكريم دلّت على عدة دلالات، تنوعت على حسب السياق وقرائن الأحوال، فدلت على المواظبة على الأمر والقيام عليه، كالصلاة وغيرها، كما دلت على العفة والطهارة، ودلت على التعهد والحفظ من الله لخلقه وكتابه، كحفظ السموات من الشياطين المردة، كما دلت على العناية بالأمر والقيام على ما يصلحه، كما قال يوسف للملك "إني حفيظ عليم" ، فضلًا عن التعبير عن الملائكة بالحفظة، وغير ذلك من الدلالات التي جاءت عليها مادة (حفظ) في القرآن الكريم في سياقاتها المتنوعة.

---

(١) عمدة الحفاظ ، للسمين الحلبي،(١/٤٣٢-٤٣٣)، بتصرف، وينظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة، تأليف/ عبد الفتاح القاضي، صـ ٩٦، مكتبة أنس بن مالك، ط الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

(٢) لسان العرب، للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، (ت: ٧١١هـ)، (مادة: ح/ ف/ ظ)، بتصرف، دار صادر بيروت، ط الأولى، بدون.

المبحثُ الأولُ:

بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق أهل الإيمان.

ويشتمل على ما يأتي:

أولًا: بلاغة التعبير عن المحافظة على الصلاة بمادة (حفظ).

ثانيًا: بلاغة التعبير عن العفة والطهارة بمادة (حفظ).

ثالثًا: بلاغة التعبير عن حفظ الأيمان والحدود بمادة (حفظ).

أولًا: بلاغة التعبير عن المحافظة على الصلاة بمادة (حفظ).

ورد التعبير عن المحافظة على الصلاة، والحث على تأديتها في أوقاتها بمادة (حفظ) في (أربعة) مواطن في القرآن الكريم(١)، منها قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ ﴾ (البقرة:٢٣٨).

والآيةٌ مفصحةٌ في سياقها المقالي عن المحافظة على الصلوات، والمواظبة على آدائها في أوقاتها جملة، ثم تخصيص الأمر بالتأكيد على الصلاة الوسطى، فهذه الآية وقعت بين آيات أحوال الأسرة، والمعنى: حافظوا على بيوتكم بحفاظكم على الصلوات المكتوبة، فضلًا عن أن وقوعها هذا الموقع فيه دلالة على عدم انشغال الناس بأمور الدنيا وما فيها من زواج وطلاق وخلافه عن الصلاة المكتوبة التي هي حق الله على عباده، وهي الوسيلة بين العبد وربه، أي: " إذا كان قد أمر بالمحافظة على أداء حقوق الآدميين فلأن يؤمر بأداء حقوق الله أولى وأحق"(٢).

والمراد بالأمر في قوله:﴿ حَٰفِظُواْ ﴾، الحث بالمواظبة على فعل المأمور به – وهو تأدية الصلوات في أوقاتها – وتعهد ذلك بالمحافظة والاهتمام وعدم النسيان؛ لأن الله(ﷻ) توعد السَّاهين عن صلاتهم بويل، الذي هو وادٍ في جهنَّم،

(١) هذه المواطن بترتيب المصحف كما يأتي: سورة البقرة: ٢٣٨، سورة الأنعام: ٩٢، سورة المؤمنون: ٩، سورة المعارج: ٣٤.

(٢) تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي(ت ٧٤٥هـ)، تحقيق الشيخ/ عادل عبد الموجود، والشيخ علي معوض، وشارك في تحقيقه: د/ زكريا عبد المجيد المنوفي، د/ أحمد النجولي الجمل، قرظه/ ا.د/ عبد الحي الفرماوي،(٢/٢٤٨)، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط الأولى١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

وقيل بابٌ من أَبوابها، وأَصْلُ الوَيْلِ في اللغة: العَذاب والهَلاك[١]، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ (الماعون:٤-٥).

كما أن الأمر في قوله: ﴿ حَٰفِظُواْ ﴾، أفاد الوجوب؛ إشارة إلى أهمية الصلوات، وعدم التفريط فيها، فضلًا عن كونه أسلوبًا إنشائيًا طلبيًا بصيغة المفاعلة الدالة على غاية العزيمة، والمعنى: ليسابق بعضكم بعضًا في ذلك[٢]، وهذه المفاعلة على سبيل المبالغة كما ذكر ابن عاشور من خلال المحافظة على أوقاتها من أن تؤخر عنها، دلالة على أن المتعلق بها حق عظيم يُخشى التفريط فيه[٣].

والمتأمل في قوله: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ﴾ يلحظ فيه لونًا من الإطناب الذي هو (ذكر الخاص بعد العام)؛ لأهميته وخصوصيته، فَذَكَرَ الحقُ الصلوات إجمالًا- وهي عامٌ- ثم عطف على الأمر بالمحافظة الصلاة الوسطى على سبيل الخصوص؛ لكونها في وقت ينشغل الناس بدنياهم وأعمالهم عنها، فكان تخصيصها بالذكر "تنبيهًا على فضلها على غيرها من الصلوات"[٤]، وكأن الصلاة الوسطى جنسٌ قائمٌ بنفسه، إشارة إلى فضل تلك

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة: (و / ي /ل).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام المفسر/ برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، المتوفى سنة (٨٨٥هـ - ١٤٨٠م) ،(٣٥٩/٣)، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، بدون.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير" تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" تأليف: محمد الطاهر بن عاشور، (٤٦٨/٢)الدار التونسية للنشر،١٩٨٤م، بدون

(٤) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، (٢٤٩/٢).

الصلاة؛ لأنه يتسبب في تفويتها وعدم المحافظة عليها عدم استقرار الأسرة، وتفككها؛ لذلك خُصّت بالذكر، وعطفت على فعل الأمر ﴿حَٰفِظُواْ﴾، فالذي يحافظ عليها سيحافظ على بيته من التفكك والانفصال.

وعُرِّفت الصلوات بـ (أل) العهدية باعتبار عهدية الصلوات الخمس(١)، كما أن المراد بالصلاة الوسطى (صلاة العصر) على الراجح من أقوال أهل العلم(٢).

كما أن في التعبير بصيغة الأمر ﴿حَٰفِظُواْ﴾ دون (واظبوا، أو احرصوا)، دلالة على الحث، وقوة الحفظ، لما في الحفظ من عدم الإضاعة؛ لأن "نقيض الحفظ الإضاعة"(٣)، فالعبد إذا لم يحافظ على صلاته فإنه سيضيعها، فالمحافظة على الصلوات تكون بتأديتها في أوقاتها وعدم تأخيرها، فضلًا عن التهيؤ والانشغال بها، وهذا المعنى لا يؤديه سوى مادة (حفظ) بمعناها ودلالتها على التعهد والعناية وعدم النسيان والإضاعة.

ثم ختمت الآية بآمر آخر معطوف على ما قبله، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ وهذا القيام يكون في الصلوات التي أُمِرَ بالمحافظة عليها في بداية الآية، فهنا تناسب بين بداية الآية وختامها، وهو ما يسمى بـ (تشابه

(١) ينظر: تفسيرالتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٤٦٧/٢)

(٢) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف: الإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، ت: ٥٣٨هـ، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين،(٢٨٣/١)، دار الكتب العلمية –بيروت، ط الخامسة ٢٠٠٩م، والبحر المحيط، لأبي حيان،(٢٥٠/٢)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٤٦٨/٢).

(٣) الفروق في اللغة، لأبي هلاك العسكري، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة،، صـ ١٩٩، دار الآفاق الجديدة– بيروت، ط الرابعة ١٤٠٠هـ –١٩٨٠م.

الأطراف)[١]، فالأمر بالمحافظة على أداء الصلوات يتلاءم مع الختام بالأمر بالقيام الذي هو جزء من الصلاة، فضلًا عن القنوت الذي هو بمعنى الذكر والخشوع، حيث كانوا يتكلمون في صلاتهم فيما يُعرض لهم، حتى نزلت هذه الآية[٢].

كذلك من المواطن التي ورد التعبير فيها بمادة (حفظ)، للدلالة على المحافظة على الصلاة، قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۗ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الأنعام:٩٢).

وهذه الآية تثبت نزول القرآن للمعاندين الذين أنكروا نزوله على سيد الخلق(ﷺ)، وذلك بعدما ذكر الحق(ﷻ) نزول التوراة على سيدنا موسى(عليه السلام)، وأن هذا القرآن يُصدِّق كُتب الله المُنزَّلة قبله كالتوراة والإنجيل، فضلًا عن تبليغه أم القرى ومن حولها، كما امتدح الحق المؤمنين به، الذين يُصدِّقون بيوم الحشر، وحالهم المحافظة على الصلاة المكتوبة، فهذا" تحقيقٌ لنزول القرآن الكريم بعد إنزال ما بَشَّر به من التوراة، وتكذيبٌ لهم في كلمتهم الشنعاءِ"[٣].

والمتأمل في جملة ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾، يلحظ أنها جملة حالية، ابتُدأت بواو الحال على سبيل المدح لهؤلاء المؤمنين الذين يُصدِّقون باليوم

(١) تشابه الأطراف: هو أن يُتمم الكلام بما يتناسب مع أوَّله في المعنى. (الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق: أ.د/ أحمد شتيوي، صـ ٣٧٥، دار الغد، ط الأولى ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م).

(٢) ينظر: الكشاف، للزمخشري، (٢٨٤/١)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، (٢١٦/١)، دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ، بدون.

(٣) تفسيرالتحرير والتنوير، لابن عاشور،(٣٦٩/٣).

الآخر وما فيه من بعث وحساب، وبنزول القرآن الكريم، وبالنبي(ﷺ) الذي أُنزل عليه القرآن.

كما اشتملت تلك الجملة على عدة مؤكدات تحاكي قوة إيمان هؤلاء المُصدِّقين، وتفصح عن صدق عزيمتهم، كاسمية الجملة، وكونها حالية بالواو، والابتداء بالضمير (هم) الذي وقع مبتدأ، ثم تقديم الجار والمجرور على المسند- الخبر- ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ الذي أفاد التوكيد في كون الصلاة هي مناط الحفظ والعناية، فضلًا عن الإتيان بـ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتها على الاستعلاء؛ لتفخيم أمر الصلاة وتعظيم شأنها، ثم الإخبار عن المبتدأ بالفعل المضارع﴿ يُحَافِظُونَ ﴾، فتقديم المسند إليه على خبره الفعلي أفاد (تقوية الحكم وتوكيده)؛ لكون المسند إليه معرفة والمسند فعل، فالإسناد هنا في الفعل﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ متكرر، حيث أُسند مرة إلى واو الجماعة، ثم ثانية إلى المبتدأ لكون جملة﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ خبرًا للمبتدأ ﴿وَهُمۡ ﴾.

وفي التعبير عن المحافظة على الصلاة بالفعل المضارع ﴿ يُحَافِظُونَ ﴾، دلالة على تجدد تلك المواظبة والعناية من المؤمنين والقيام على أمرها، وذلك بتأديتها في أوقاتها على الوجه الأكمل؛ لأن الصلاة تتجدد في اليوم والليلة خمس مرات.

فضلًا عن التناسب بين التعبير عن الصلاة بالمضارع والتعبير عن الإيمان باليوم الآخر ونزول القرآن بالأفعال المضارعة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ فالمضارع يفيد التجدد، وهذا التجدد يقتضي تجدد الأزمنة، وكذلك تجدد الإيمان بما في القرآن الكريم من كثرة التدبر والتأمل؛ لأن عطاءات القرآن لا تنفد، فكلما جدد الإنسان تحديق النظر في كتاب الله(ﷻ) وتَدَبَّر، أيقن أنه كلام الله(ﷻ)، وأن ما فيه حق وصدق، وفي ذلك إشارة إلى أن

الذين يؤمنون بالآخرة وبنزول القرآن ليسوا فقط هم الثلة المؤمنة من الصحابة والتابعين، وإنما الذين جاؤوا من بعدهم وهم كثير جدًّا، فهذا التتابع ناسبه التعبير بالمضارع الذي يدل على التجدد.

كما أن في تخصيص الصلاة بالمحافظة دون باقي الأركان؛ دلالة على أفضليتها، وأنها عماد الدين، وأنها الركن الثاني بعد الشهادتين، "وخصّ الصلاة؛ لأنها عماد الدين، ومن حافظ عليها كانت لطفًا في المحافظة على أخواتها"(١)، فضلًا عن كون الصلاة هي ما اختص به المؤمنون في هذا الوقت؛ لأن الحج كان يفعله المسلمون وغيرهم(٢).

وهناك أكثر من موطن ورد التعبير فيه بمادة (حفظ)، للدلالة على المحافظة على الصلاة وتأديتها في أوقاتها بالفعل المضارع، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ (المؤمنون: ٩)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ (المعارج:٣٤).

فالتعبير بالمحافظة على الصلوات بالفعل المضارع﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ يعكس تجدد المواظبة على آدائها في أوقاتها، وأنه لا يفعل ذلك إلا مؤمن قوي الإيمان، فالصلاة كبيرة إلا على الخاشعين كما ذكر ربنا (ﷻ) في قوله: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦ ﴾(البقرة:٤٥-٤٦)، والذي يحافظ عليها يكون جزاؤه الفردوس الأعلى، كما أخبر بذلك الحق في سياق سورة المؤمنين، فالحق بعدما ذكر أوصاف المؤمنين الذين وعدوا بالفلاح، أعقب تلك الآية﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ

(١) الكشاف، للزمخشري، (٤٣/٢).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٣٧٣/٧).

عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ (المؤمنون: ٩)، بقوله:﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ (المؤمنون:١٠-١١)، فهذا هو جزاؤهم الذي تسبب عن عملهم وإخلاصهم، ولذلك ذكر الحق (الخلد) بصيغة اسم الفاعل، ﴿خَٰلِدُونَ﴾ مع أنهم مخلدون بأمر ربهم(ﷻ)، ولكن لما كان عملهم سببًا في دخولهم الجنة عبَّر عن خلودهم باسم الفاعل على سبيل المجاز العقلي لعلاقة (المفعولية)؛ لأن الذي خلَّدهم هو الله(ﷻ)، وإنما أُسند الخلود إليهم، على سبيل التكريم والتفخيم؛ لكون أعمالهم سببًا في دخولهم الجنة.

*****

ثانيًا: بلاغة التعبير عن العفة والطهارة بمادة (حفظ).

ورد التعبير عن العفة والطهارة بمادة (حفظ) في (ستة) مواطن في القرآن الكريم(١)، منها قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ۝٣٤ ﴾ (النساء:٣٤).

فالله (ﷻ) بعد ما بيَّن قوامة الرجال على النّساء، وذلك بسبب ما فُضِّل به بعضهم على بعض، وبما أخرجوا من أموالهم في النفقات والمهور، أخبر عن صفات الصالحات من المؤمنات، والتي من صفاتهنَّ حفظ أنفسهنَّ وفروجهنَّ في حال غيبة أزواجهنَّ(٢).

(١) سورة النساء: ٣٤، المؤمنون: ٥، النور: ٣٠، ٣١، الأحزاب: ٣٥، المعارج: ٢٩.

(٢) ينظر: الكشاف، للزمخشري، (٤٩٦/١).

والمتأمل في قوله: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾، يلمح التعبير عن العفة والطهارة بمادة (حفظ)، ثم التعبير عن الحفظ بصيغة اسم الفاعل ﴿حَٰفِظَٰتٌ﴾، دلالة على ثبوت الحفظ وتعهده على جهة الثبوت والدوام في زمن غياب الزوج دون تجدد أو انقطاع، بخلاف التعبير بالفعل المضارع الذي يدل على تجدد الحفظ، وهذا غير مراد، فالمراد هو دوام الحفظ من النساء في زمن غياب الزوج؛ وإشارة إلى أن هذا ما يجب أن يكون منهنَّ ويتصفن به، أي: يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال، فاللام بمعنى في، والغيب بمعنى الغيبة[١]، فالحفظ هنا مراد به حفظ النفس والفرج[٢].

فالحفظ مقيد بزمن غياب الزوج، فاللام بمعنى في، وذكر ابن عاشور أن الغيب عُلّق بالحفظ على سبيل المجاز العقلي؛ لأنّه وقته[٣]، فهو مجاز عقلي علاقته (الزمانية)؛ لأن الغيب زمان للحفظ، واختص هذا الزمن– وقت الغياب– دون غيره، للدلالة على أن المرأة إذا حفظت نفسها في حال غياب زوجها كانت في قمة الصون والعفاف، لورود انشغالها في هذا الزمن بشهواتها وغلبتها عليها، بخلاف حالة وجود الزوج، فَذُكر (الغيب) فيه دلالة على إخلاصهنَّ في الطاعات؛ لأن المحافظة في الخلوات دليل على حياة القلب وكمال الإيمان، وأن ذنوب الخلوات أصل الانتكاسات.

فالتعبير بمادة (حفظ) هو الأنسب للسّياق؛ لما في الحفظ من الإمساك

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري، (٤٩٦/١).

(٢) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف العلامة/ أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، المتوفى سنة ١٢٧٠هـ ، ضبطه/ على عبد الباري عطيه،(٢٤/٣)، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٤٠/٥).

والتعهد والعفاف، وأن في حفظ النساء أنفسهنَّ وفروجهنَّ دليلًا على صلاحهنَّ، وقوة إيمانهنَّ، وذلك بامتثالهنَّ أوامر الله (ﷻ)، واجتنابهنَّ نواهيه.

كما يُلمح في الآية الإخبار عن الصالحات أولًا بالقنوت ثم الحفظ؛ فقُدِّم القنوت على الحفظ في قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾؛ دلالة على أن قنوتهن بالتعبد والتقرب إلى الله يجعلهنَّ أكثر خوفًا من الله(ﷻ)، فتقديم القنوت دلَّ " على تلازم خوفهنّ الله وحفظ حقّ أزواجهنّ"[1].

والمتأمل في قوله: ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ يلحظ التعبير بمادة (حفظ) واسنادها لله(ﷻ)، فحفظ النساء أزواجهنَّ مسببٌ عن حفظ الله لهنَّ، وعصمته إياهنَّ، ولولا أن الله (ﷻ) حفظهنَّ وعصمهنَّ لما حفظن[2]، وذلك على أن (ما) مصدرية[3]، وهذا المعنى على أن الله هو فاعل الحفظ لهنَّ، برفع اسم الجلالة في قوله:﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾، فعبر الحق عن حفظ النساء بالفعل الماضي ﴿حَفِظَ﴾، إشارة إلى كينونة الحفظ منذ خلقهنَّ، فالله سمى حفظ النساء لأنفسهنَّ بما سمى به حفظه لهنَّ، من خلال مادة (حفظ)؛ لمناسبة تلك المادة لما وضِعَت له من عدم النسيان والرعاية، فضلًا عن دخول الباء على الموصول ﴿ بِمَا ﴾ الذي أفاد التفخيم لشأن هذا الحفظ، مع التعبير باسم الألوهية ﴿ ٱللَّهُۚ﴾، تربية للمهابة في قلوب أولئك الذين يخافون الله.

وقرأ أبو جعفر ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ بالنصب، ولا بد من تقدير مضاف

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٥/٤٠).

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي ،(٣/٢٤).

(٣) ينظر: الكشاف، للزمخشري(١/٤٩٦)، والتحرير والتنوير لابن عاشور، (٥/٤١).

على هذه القراءة، أي: دين الله، على معنى بسبب رعايتهنَّ حق الله[١]، وذلك على أن " ما موصولة، أي: حافظات للغيب بالأمر الذي يحفظ حق الله وأمانة الله، وهو التعفف والتحصن والشفقة على الرجال والنصيحة لهم"[٢].

فكل قراءة أفادت معنى، والمعنيان مرادان، ولا تعارض بينهما، فالله(ﷻ) هو الذي حفظهنّ بحفظه وعنايته، وهنَّ كذلك حفظن حق الله وأدَّين ما عليهنَّ من فرائض وأحكام، وإشارة إلى أنهنَّ محفوظات من قبل الملك؛ لأن من أدى فروض الله فهو في ذمته، ومن كان في ذمته حفظه (ﷻ) من المعاصي والآثام.

كذلك من المواطن التي ورد التعبير فيها عن العفة والطهارة في حفظ الفرج بمادة (حفظ)، ما ورد في سياق بيان صفات المؤمنين التي استحقوا بها درجة الفلاح، ومنزلة الفردوس الأعلى في الجنة؛ والتي منها حفظهم فروجهم من الحرام، فلا يضعون شهوتهم إلا فيما أحلَّ الله لهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ ﴾ (المؤمنون:٥).

وفي تعبير النَّظم القرآني عن حفظ المؤمنين فروجهم مما لا يحل لهم، بصيغة اسم الفاعل﴿حَٰفِظُونَ ﴾، دلالة على مدى تعهدهم لهذا الحفظ، وإشارة إلى ديمومة ذلك، وأن هذا هو خُلقهم وديدنهم الذي اشتُهروا به، وهذا الحفظ يستلزم البعد عن موجبات الزِّنا، كالنظر والقبلة واللمس، وغير ذلك من مقدماته التي نهى الله عنها في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ...﴾ (الإسراء:٣٢)، فالتعبير باسم الفاعل﴿حَٰفِظُونَ ﴾، "يفيد ثبات الحفظ ودوامه وعدم انتهاكه على سبيل الاستمرار؛ لأن هذا لا ينبغي أن يخرم ولو مرة

(١) ينظر: عمدة الحفاظ، للسمين الحلبي، (٤٣٢/١)، وروح المعاني، للألوسي(٢٤/٣)، والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، لعبد الفتاح القاضي، صـ ٩٦.

(٢) الكشاف، للزمخشري، (٤٩٦/١).

واحدة"[1].

وفي إيثار النَّظم القرآني صيغة ﴿حَٰفِظُونَ﴾، دون (ممسكون)، سرٌ لطيف أشار إليه د/ فاضل السامرائي حيث قال: "ولم يقل ممسكون، أو نحو ذلك مما فسر به، وفي اختيار (الحفظ) سرٌّ بديعٌ، وذلك أن الذي يُمسك فرجه عمّا لا يحل له يكون حافظًا لنفسه ولفرجه من الآفات والأمراض والأوجاع التي تصيبه"[2].

والمتأمل في نظم الآية يلحظ دلالتها على التأكيد من حيث الابتداء بالاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الذي هو نعت للمؤمنين في بداية السورة، ثم وقوع الضمير ﴿هُمۡ﴾ مبتدأ، مع تقديم الجار والمجرور ﴿لِفُرُوجِهِمۡ﴾ على الخبر؛ للتوكيد، ثم الإخبار عن المبتدأ باسم الفاعل ﴿حَٰفِظُونَ﴾، فتقديم المسند إليه على المسند أفاد تأكيد الحفظ من المؤمنين، فضلًا عن مجيء المسند بصيغة اسم الفاعل؛ ليدل على دوام الحفظ منهم دون تجدده، وذلك لأن تلك الأفعال مبناها على الدوام؛ نظرًا لدوام الجزاء، وهو الإرث في الجنة كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ (المؤمنون: ١٠-١١)، فلا بُدَّ من الصبر على شهوات النفس وجهادها.

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د/ فاضل صالح السامرائي، صـ ١٤٥، دار عمار للنشر- عمان- ط الثالثة ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

(٢) السابق، صـ ١٤٣.

كذلك من المواطن التي ورد التعبير فيها بمادة (حفظ) للدلالة على حفظ الفرج بصيغة اسم الفاعل، قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (الأحزاب:٣٥).

فقوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾ ورد في سياق مدح المؤمنين الذين أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا، فوصف المؤمنين والمؤمنات بحفظ الفرج من خلال صيغة اسم الفاعل، الدالة على ثبوت ذلك الوصف لهم في كُل أزمنتهم، وذلك ضمن تلك الأوصاف التي قامت على التعبير بصيغة اسم الفاعل.

كما أن في التعبير بمادة (حفظ) دون غيرها؛ إشارة إلى قوة المحفوظ (الفرج)، والإمساك عليه وعدم التفريط فيه، فضلًا عن قوة الإيمان وعزيمة المؤمن التي تعكس قوة الصلة بين العبد وخالقه في الامتثال لما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، حيث لم يكتف في الإخبار عن المؤمنين فقط بالحفظ على طريق التغليب، وإنما ذكر الحافظات كذلك؛ تكريمًا لهنَّ، وإشارة إلى خطورة تلك القضية.

كذلك ورد قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (المعارج: ٢٩)، فعبَّر النظم القرآني – أيضا– عن حفظ الفرج وتعهد ذلك باسم الفاعل ﴿ حَٰفِظُونَ ﴾، فهذا الحفظ ثابت منهم ودائم لهم إلا فيما استثناه النَّظم من ذلك وهم الأزواج أو ملك اليمين، فضلًا عن كون هناك مواطن أخرى عبَّر فيها النَّظم عن حفظ الفروج بصيغة الفعل المضارع، وهذا ما سنلقي عليه الضوء.

فالنَّظم القرآني عبَّر عن حفظ الفرج بصيغة الفعل المضارع في موطنين في سياق واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١ ﴾ (النور:٣٠-٣١).

حيث عبَّر النَّظم في هذا السياق عن حفظ الفرج من المؤمنين والمؤمنات في موطنين، الأول: قوله تعالى: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ والثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، وذلك في سياق توجيه الأمر للمؤمنين والمؤمنات من الله (ﷻ)على لسان نبيِّه(ﷺ) بغض الأبصار عما حرَّم الله النَّظر إليه، وعدم إبداء النساء زينتهنَّ إلا ما ظهر منها، وتحتاج إليه في المعاملات، كما نهاهم عن إبداء الزينة المستورة إلا لمن استثناهم النَّظم، وهم: الأزواجُ، والآباءُ، وآباء الأزواج، والأبناء، وأبناءُ الأزواج، والأخوة، وأبناءُ الإخوة، وأبناءُ الأخوات، والنساءُ المخالطات لهنَّ، وما ملكت أيمانهنَّ من الإماء والخدم، والتابعون الذين يخالطونهنَّ وليس لهم حاجة في النساء، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم.

وسبب نزول هذه الآية ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ...﴾ ما أخرجه "ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: بلغنا أن جابر بن عبد الله حدّث أن أسماء بنت مرثد كانت في

نخل لها، فجعل النساء يدخلن عليها غير متآزرات فيبدو ما في أرجلهنّ، يعني الخلاخل، وتبدو صدورهنَّ وذوائبهنّ، فقالت أسماء: ما أقبح هذا! فأنزل الله في ذلك:﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ...﴾"[1].

والمتأمل لنَّظم الآيتين يلحظ التعبير عن المؤمنين والمؤمنات بصيغة اسم الفاعل، بينما استخدم صيغة المضارع في التعبير عن غضِّ البصر وحفظ الفرج فقال: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾، وقال في شأن المؤمنات: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، وذلك لمّا كان الوصف بالإيمان ثابتًا معهم، يتقبلون من خلاله أوامر الله وتكاليفه بصدر رحب، عبَّر عنهم بصيغة اسم الفاعل الدال على الثبوت والدوام، ثم لما كان غضُّ البصر وحفظ الفرج مما يطرأ ويزول على الإنسان، عبَّر بالمضارع الذي يفيد تجدد الغض والحفظ بتجدد سببه، فكلما لاح للإنسان غير المحارم غضَّ بصره، وحفظ فرجه كذلك؛ لأن هذا الغض والحفظ هو الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، فعنترة الجاهلي الذي لم يدرك الإسلام قال: وأغضُّ طرفي إن بدت لي جارتي، فما بالنا بالمؤمن، فناسبت كل صيغة دلالتها، وهذا وجه من وجوه الإعجاز التي لا تنقضي.

فالنَّظم القرآني استخدم في التعبير عن حفظ المؤمنين فروجهم صيغة اسم الفاعل تارة، وصيغة الفعل المضارع تارة أخرى، وكل صيغة دلّت على معناها ومدلولها في سياقها، فحينما عبَّر بصيغة اسم الفاعل في قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ ﴾ (المؤمنون:٥)، وقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ

(١) أسباب النزول المسمى " لباب النَقُول في أسباب النزول"، للإمام الحافظ/ جلال الدين أبي عبد الرحمن السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، صـ ١٨٧، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت– لبنان، ط الأولى ١٤٢٢هـ– ٢٠٠٢م.

لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (المعارج: ٢٩) ، دلَّ ذلك على دوام حفظ المؤمنين فروجهم مع الاستثناء من هذا الثبوت والدوام، وهو مع الأزواج أو ملك اليمين، فقال تعالى: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (المؤمنون: ٦).

ثم حينما عبَّر عن الحفظ في سورة النور في قوله تعالى: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، عبَّر بالفعل المضارع الدال على تجدد الحفظ من المؤمنين والمؤمنات بتجدد سببه وهو وجود غير المحارم، فلا يتطلع النظر بالتحديق إلى غير المحارم، فهنا يجب غض البصر وحفظ الفرج؛ لأن التجدد يعقبه انقطاع، فتجدد الحفظ منهم يكون مع غير الزوج أو الزوجة، بينما انقطاع الحفظ يكون مع الزوج أو الزوجة؛ لأن هذا ليس فيه شيء.

وذكر الإمام عبد القاهر الفرق بين التعبير بالاسم والتعبير بالفعل، فقال: "الفرق بين الإثبات إذا كان بالاسم، وبينه إذا كان بالفعل– وهو فرق لطيف تمس الحاجة في علم البلاغة إليه–، وبيانه، أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المُثبت به شيئًا بعد شيء"(١).

وفي تقديم غضّ البصر على حفظ الفرج في الآيتين:﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، دلالة على كون الثاني مرتَّبًا

(١) دلائل الإعجاز، تأليف الإمام: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، صـ ١٧٤، مطبعة المدني – المؤسسة السعودية بمصر ،الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

على الأوّل، فإطالة النظر إلى النساء والعكس إلى الرجال يُحرِّك الشهوة إلى المنظور إليه؛ " لأنّ النظر بريد الزِّنا ورائد الفجور، والبلوى فيه أشدّ وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه"(١)، كذلك هو الباب الذي يفتحه الشيطان إلى قلب العبد؛ ليسوقه إلى ما حرَّم الله، فالنظرة سهم من سهام الشيطان يصطاد به فريسته، ولذلك فصل الحق في تلك القضية، حينما تحدث عن كبيرة الزنى، والنهى عنها، فلم يقل الحق ولا تزنوا، وإنما قال: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ ﴾ (الإسراء:٣٢)، أي موجباته والتي أولها النظرة.

كما أن في تقديم الرِّجال على النساء في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾، دلالة على غلبة الشهوة في جانب الرجال عن النساء؛ لكون هذا الأمر أصل في الرِّجال، فالرَّجل هو الذي يطلب المرأة، فإذا غضَّ بصره توخى الوقوع في المحرَّم، والمرأة ربما يمنعها حياؤها من النظر إلى الرجل، فالقاعدة النحوية تفصح عن أن التذكير أصل والتأنيث فرع عنه، كما أن في هذا التقديم إشارة إلى " تقدم الرجال وقوامتهن على النساء، ولم يدرج أمر المؤمنات في أمر المؤمنين على طريقة التغليب"(٢).

*****

(١) الكشاف، للزمخشري، (٣/٢٢٣).

(٢) مع النظم القرآني في سورة النور، للدكتور/ الشحات محمد أبو ستيت، صـ ١٠٤، مطبعة الأمانة، ط الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

ثالثًا: بلاغة التعبير عن حفظ الأيمان والحدود بمادة (حفظ).

ورد التعبير عن حفظ الأيمان والحدود بمادة (حفظ)، للدلالة على الإمساك عن الحلف والنهي عنه، وحفظ الحدود في (ثلاثة) مواطن **في القرآن الكريم** (١):

الموطن الأول: الإمساك عن الحلف والنهي عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩ ﴾ (المائدة:٨٩).

وهذه الآية مفصحة في سياقها عن بيان حكم اليمين المقصود والمنعقد عليه النيّة، وأن كفارته إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، بخلاف اليمين غير المقصود فليس فيه شيء، وهو كـ قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله، بلى والله، وقيل: هو في الهَزْل، وقيل: في المعصية، وقيل: اليمين في الغضب، وقيل: في النسيان، وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ ﴾ تعبير عن الإمساك عن الحلف والنهي عنه بفعل الأمر ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ ﴾؛ دلالة على عدم الاستهانة باليمين، وإشارة إلى الكفارة التي تسببت في هذا اليمين المقصود، فالله يريد الخير لعباده،

(١) سورة المائدة: ٨٩، سورة التوبة: ١١٢، سورة ق : ٣٢.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي(٧٠٠-٧٧٤هـ)، خرج أحاديثه: محمود بن الجميل، ووليد بن محمد بن سلامة، وخالد بن محمد بن عثمان،(١٠٤/٣)، مكتبة الصفا، ط الأولى ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م .

ويرشدهم إلى الطريق المستقيم، كما يريد منهم ألا يجعلوه عرضة لأيمانهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾ (البقرة:٢٢٤)، "أي فلا تحلفوا ما وجدتم إلى ذلك سبيلًا، ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم، فإنه سبحانه عظيم، ومن أكثر الحلف وقع في المحذور ولا بد، وإذا حلفتم فلا تحنثوا دون تكفير"(١)، فضلًا عن دلالة الأمر على الزَّجر لهم على تلك العادة السخيفة(٢).

وذكر الزمخشري أن المراد بقوله: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ ﴾ أي: "فبروا فيها ولا تحنثوا، أراد الأيمان التي الحنث فيها معصية؛ لأن الأيمان اسم جنس يجوز إطلاقه على بعض الجنس وعلى كله، وقيل: احفظوها بأن تكفروها، وقيل: احفظوها كيف حلفتم بها، ولا تنسوها تهاونًا بها"(٣).

فالأمر في حفظ الأيمان مراد به النهي والزَّجر عن الحلف، مع عدم تكرار ذلك ووقوعه منكم على جهة التهاون بها؛ لأن ذلك هو شرع الله وحدوده التي شرعها؛ تطهيرًا لعباده من ذنوبهم ومعاصيهم.

لذلك ختمت الآية بما يتناسب مع الحكمة من تلك الحدود التي توجب شكر الله على تطهير عباده من ذنوبهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: "مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أعلام شريعته وأحكامه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج منه"(٤)، وذلك لأن "الكفّارة ما هي إلاّ خروج من الإثم"(٥).

(١) نظم الدرر، للبقاعي، (٦/٢٨٩).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٣/٢٠).
(٣) الكشاف، للزمخشري، (١/٦٦٠).
(٤) الكشاف، للزمخشري، (١/٦٦٠).
(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٣/٢٠).

الموطن الثاني: في التعبير عن المواظبة على شرائع الله(ﷻ) وحدوده بالحفظ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ (التوبة:١١٢).

وقوله: ﴿وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾، ورد في سياق بيان أوصاف المؤمنين الذين ذَكَرَ اللهُ(ﷻ) أنه اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنَّة، وأول تلك الصفات هي التوبة، ثم العبودية والحمد والركوع والسجود، فضلًا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومواظبتهم على شرائع الله بإتيانهم ما أحلَّ الله، وانتهائهم عما نهى الله عنه، "كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من اللّه بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: هم ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ "(١).

وعبَّر النَّظم الحكيم عن المواظبة على شرائع الله(ﷻ) وعدم نسيانها والعمل بها بصيغة اسم الفاعل﴿وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾، دلالة على ثبوت الحفظ ودوامه مع عدم النسيان؛ لأنه إتيان لما أحل الله، وتحريم عما حرم الله، وكل ما يتعلق بالأحكام والأوامر والنواهي، فناسبه التعبير بالثبوت والدوام.

فالمتأمل لتلك الأوصاف يجد مبناها على الدوام- وهو دوام الوصف للموصوف- من خلال التعبير بصيغة اسم الفاعل﴿وَٱلۡحَـٰفِظُونَ﴾، فليس ذلك فقط في حفظ الحدود وإنما في جميع الأوصاف التي مدحهم الله بها، دلالة على ديمومة هذه الأوصاف للمؤمنين في الدنيا والتي استحقوا بسببها البشرى من الله(ﷻ)في قوله:﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، "أي: الموصوفين بالنعوت المذكورة،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف العلامة الشيخ/ عبد الرحمن بن ناصر السعدي(١٣٠٧-١٣٧٦)، قدم له الشيخ/ محمد بن صالح العثيمي، صـ ٣٣٢، مكتبة الصفا، ط الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

ووضع المؤمنين موضع ضميرِهم؛ للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الأيمان، وأن المؤمن الكامل مَنْ كان كذلك، وحُذف المبشَّرُ به للإيذان بخروجه عن حد البيانِ"[(١)]، فالحذف للعموم؛ لأن مدار البُشرى على حسب قوة إيمان المؤمن، ومدى صدقه في تلك الأوصاف.

كما عُرِّف اسم الفاعل ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ﴾ بأل الموصولة التي بمعنى (الذين يحفظون)، إشارة إلى أنهم مميزون عن غيرهم ممن لا يحفظون حدود الله، فهؤلاء معروفون في الدنيا بهيبتهم وزهدهم، وهم في الآخرة كذلك– إن شاء الله– معروفون بسيماهم؛ لأن حدود الله(ﷻ) لا يحفظها إلا مؤمن صادق مخلص، زهد الدنيا واشتراها بالآخرة؛ لذلك وقوع الجار والمجرور ﴿لِحُدُودِ﴾، مفعولًا به لاسم الفاعل.

الموطن الثالث: في التعبير عن حفظ حدود الله وعموم الطاعات، ما ورد في سياق دنو الجنَّة وإزلافها للمتقين يوم القيامة، وذلك لكل عبدٍ راجعٍ عن معصية الله، تائب من ذنوبه، مُسبح لله(ﷻ)، حافظ لحدوده، ولأنواع الطاعات(ﷻ)[(٢)]، وذلك في قوله تعالى:﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ (ق: ٣٢).

والمراد بصيغة المبالغة ﴿حَفِيظٍ﴾ في هذا السياق كما ذكر الإمام

(١) تفسير أبي السعود، المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لقاضي القضاة الإمام/ أبي السعود محمد بن محمد العماري(ت: ٩٥١هـ)، (٣/٧٥)، (٤/١٠٧)، دار إحياء التراث العربي بيروت– لبنان، بدون.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، تحقيق/ أحمد محمد شاكر،(٧/١٠٣)، مؤسسة الرسالة، ط الأولى ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م، والكشاف، للزمخشري (٤/٣٨٠).

الطبري، أنه حفظ عام يشمل جميع الطاعات، أي: " هو حفيظ لكل ما قربه إلى ربه من الفرائض والطاعات والذنوب التي سلفت منه للتوبة منها والاستغفار"[(١)].

وفي التعبير عن حفظ حدود الله وجميع الطاعات، وكل ما يقربه من الله، بمادة حفظ في قوله: ﴿حَفِيظٍ﴾، دلالة على ما في هذا الحفظ من الامتثال والإمساك على المحفوظ وعدم نسيانه، وهذا المحفوظ هو حدود الله التي هي أوامره ونواهيه وجميع طاعاته، فعبَّر بالحفظ ليتناسب مع المواظبة على هذه الحدود والطاعات، والتي من ثمارها أن دنت الجنة من أصحابها يوم القيامة، وهذا تكريم ما بعده تكريم، حيث قال تعالى:﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ (ق: ٣١).

كما ناسب الحفظ التعبير بـ ﴿ أَوَّابٍ﴾؛ لإفادة كثرة رجوع العبد إلى الله(ﷻ) بالاستغفار والتسبيح، والعود من المعصية إلى الطاعة، مع عدم الإصرار عليها، والمواظبة على الحفظ وعدم النسيان، وكأن هذا العائد قد أخذ على نفسه عهدًا على عدم الرجوع إلى الذنب مرة أخرى.

وفي التعبير بصيغة ﴿حَفِيظٍ﴾ دون غيرها؛ إشارة إلى قوة المبالغة الموجودة داخل الصيغة، ففيها مبالغة في حفظ هذه الحدود والطاعات التي كُلِّف بها العبد من ربه، فضلًا عن المبالغة في التوبة والإقلاع عن الذنب، وهذه المبالغة تعكس قوة إيمان العبد في كثرة رجوعه إلى الله(ﷻ)، والمواظبة على ذلك، فناسب ذلك التعبير بتلك الصيغة دون غيرها،" أي: مبالغ في حفظ الحدود وسائر العهود بدوام الاستقامة والرجوع بعد الزلة"(٢).

(١) ينظر: تفسير الطبري،(١٠٣/٧-١٠٤).

(٢) نظم الدرر، للبقاعي، (٤٣٢/١٨).

المبحثُ الثاني:

بلاغة التعبير عن قدرة الله(ﷻ)، والملائكة بمادة(حفظ).

ويشتمل على ما يأتي:

أولًا: بلاغة التعبير عن قدرة الله(ﷻ) في حفظ السموات والأرض بمادة(حفظ).

ثانيًا: بلاغة التعبير عن قدرة الله(ﷻ) في حفظ الكُتُب بمادة(حفظ).

ثالثًا: بلاغة التعبير عن الملائكة بمادة(حفظ).

أولًا: بلاغة التعبير عن قدرة الله(ﷻ) في حفظ السموات والأرض بمادة(حفظ).

ورد التعبير بمادة (حفظ) في الإفصاح عن قدرة الله(ﷻ) وتعهده لأمر السموات والأرض بالحفظ والعناية والتفقد والاهتمام في (خمسة) مواطن في القرآن الكريم(١)، منها ما ورد في سياق توحيد الله وبيان قدرته(ﷻ) وعلو شأنه، وأنه وحده له صفات الكمال والجلال، ولا يعجزه شيء، فله ما في السموات وما في الأرض، وهو وحده من يأذن بالشفاعة دون غيره، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

والمراد بحفظ السموات والأرض في قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾، بيان قدرة الله(ﷻ) على الحفظ والعناية والتفقد بما فيهما من مخلوقات، مع عدم ثقل ذلك عليه(ﷻ)، حيث نفى الحق عن نفسه هذا الثقل في قوله:﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾، و﴿يَـُٔودُهُۥ﴾ معناه: " يثقله، يقال: آدني الشيء بمعنى أثقلني وتحملت منه مشقة"(٢).

وفي التعبير عن الحفظ والعناية لأمر السموات والأرض بصيغة المصدر ﴿حِفۡظُهُمَاۚ﴾؛ دلالة على كون هذا الحفظ غير مرتبط بزمن دون زمن،

(١) هذه المواطن هي: سورة البقرة: ٢٥٥، الحجر: ١٧، الأنبياء: ٣٢، الصافات: ٧، فصلت: ١٢.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، (١/٢٣٠).

فالمصدر يدل على الحدث مجردًا عن الزَّمن، فحفظ الله لأمر السماء والأرض دائم إلى ما شاءت إرادته.

والمتأمل في قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ يلمح إسناد ضمير المثنى – السموات والأرض– إلى المصدر– الحفظ– دون أن يعود على الجمع فيشمل الكرسي، فضلًا عن ذكر الحفظ للسموات والأرض دون ما فيهما، فلم " يتعرض لذكر ما فيهما؛ لما أن حفظهما مستتبع لحفظه، وخصهما بالذكر دون الكرسي؛ لأن حفظهما هو المشاهد المحسوس"(١).

ثم لما نفى الحق عن نفسه هذا الثقل من الحفظ، جاء تذييل الآية بما يتناسب مع قدرته وعلو عظمته، وذلك في قوله:﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾أي: كيف يثقله هذا الحفظ والتعهد، وهو العلي في قدره وجاهه، العظيم في نفسه وما عداه حقير صغير، "أي المتعالي عن الأشباه والأنداد والأمثال، والأضداد وعن أمارات النقص ودلالات الحدوث، وقيل: هو من العلو الذي هو بمعنى القدرة والسلطان والملك وعلو الشأن والقهر والاعتلاء والجلال والكبرياء، ﴿ٱلۡعَظِيمُ ﴾ ذو العظمة وكل شيء بالإضافة إليه حقير"(٢).

كذلك من المواطن التي عبَّر فيها النَّظم القرآني عن حفظ السموات، ما ورد في سياق قدرة الله(ﷻ) في حفظه لأمر السموات وما فيها، وذلك بعدما أجاب عن شبهة منكري النبوة، أتبع ذلك بدلائل التوحيد، وهذه الدلائل منها سماوية ومنها أرضية، فبدأ الحق بالدلائل السماوية(٣)، حيث جعل السماء

(١) روح المعاني للآلوسي ، (١٢/٢).

(٢) السابق ، (١٢/٢).

(٣) ينظر: تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، للإمام/ محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، المشتهر بخطيب الري(٥٤٤-٦٠٤هـ)، (١٧٢/٩)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط الأولى ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

محفوظة بالشهب من اقتراب الشياطين لها بالسمع، فتُرجم بها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (الحجر:١٧).

والمراد بحفظ السماء في قوله:﴿ وَحَفِظْنَٰهَا ﴾، المحافظة عليها من مقاربة الشياطين، وذلك من خلال الشهب التي تُنزَّل عليهم، فيرجمون بها، فالحفظ يكون بالرجم، " فقد حفظ السماء من مقاربة الشيطان، فحفظ الله السماء منهم كما قد يحفظ منازلنا عن متجسس يخشى منه الفساد"(١).

وقوله: ﴿ رَّجِيمٍ ﴾، فعيل بمعنى مفعول(٢)، أي: "مَرْميٌ بالنجوم فلا يقدر أن يصعَدَ إليها، ويوسوس في أهلها، ويتصرّف فيها، ويقف على أحوالها"(٣)، فوصف الشيطان بالرجيم؛ لأنه مرمي بالحجارة وغيرها، فقيل للقتل رميًا؛ لأنه بالحجارة، وقيل غير ذلك(٤)، وذكر ابن عباس أن الشياطين كانت لا تحجب عن السموات، فكانوا ينقلون أخبار الغيب إلى الكهنة، فلما ولد عيسى(عليه السلام) منعوا من ثلاث سموات، ثم لما ولد النبي(ﷺ) منعوا من السموات كلها، وإذا ما أراد واحدٌ منهم استراق السمع رُمى بشهاب(٥)، وقد ذكر الحق في سورة الجن ما يؤيد ذلك، وهو قوله تعالى:﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ (الجن: ٨ – ٩).

كما أن في التعبير عن حفظ السماء بالكواكب التي تحرق الشياطين بصيغة الفعل الماضي ﴿وَحَفِظْنَٰهَا ﴾، دلالة على كون هذا الحفظ كائنًا منذ

(١) تفسير الفخرالرازي، (١٧٢/٩).
(٢) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، (١٠٦٧/١).
(٣) تفسير أبي السعود، (٧١/٥).
(٤) ينظر: تفسيرالفخر الرازي، (١٧٣/٩).
(٥) ينظر: السابق، (١٧٣/٩).

المضي– وهو وجود الشهب– فليس هذا أمرًا مستحدثًا، فالنجوم موضوعة لتزيين السماء مع ما فيها من إحراق للشياطين، فضلًا عن التعظيم والتشريف لأمر هذا الحفظ في إسناده إلى نون العظمة.

وفي إضافة لفظ العموم ﴿ كُلِّ﴾ إلى﴿شَيۡطَٰنٍ﴾ المنكر ، دلالة على شمولية الحفظ من جميع الشياطين والمردة، التي تحاول اختراق السمع لما يحدث في السماء، فالتنكير في ﴿شَيۡطَٰنٍ﴾، أفاد التحقير لشأنه، فضلًا عن بعده عن رحمة الله(ﷻ)؛ لأنه من شطن بمعنى بَعُد.

ومثل هذا الموطن– أيضًا– قوله تعالى: ﴿ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧﴾ (الصافات:٧)، حيث عبر الحق(ﷻ) عن حفظ السماء بالكواكب من كل شيطان مارد، فورد الحفظ بصيغة المصدر ﴿وَحِفۡظٗا﴾، دلالة على ديمومة الحفظ دون زمن معين، فالسماء محفوظة بالشهب تتنزل على المردة الذين يريدون تخطف السمع من السماء كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗا وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠ ﴾(الصافات:٦–١٠).

والمتأمل في تلك الآية يلحظ وصف الشيطان بـ ﴿مَّارِدٖ﴾، ومادة (مرد) تدور حول التمرد والعصيان والخروج عن الطاعة، فـ "المارِدُ: العاتي مَرُدَ على الأَمرِ بالضم يَمْرُدُ مُرُودًا ومَرادةً، فهو مارِدٌ ومَرِيدٌ، وتَمَرَّدَ أَقْبَلَ وعَتا... ومَرَدَ على الشرِّ وتَمَرَّد أَي: عَتَا وطَغَى، والمَرِيدُ الخبيثُ المتمرّد الشِّرِّير"(١).

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة، (م / ر / د)، بتصرف.

فالحق(ﷻ) وصف الشيطان هنا بمارد؛ لتمرده وعصيانه فضلًا عن خروجه عن الخير كما ذكر الزمخشري: "المارد: الخارج من الطاعة المتملس منها"(١)، وفي الآية الأخرى وصِفَ بـ رجيم﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (الحجر:١٧)؛ لأنه مرجوم بالشُهب، وكلها أوصاف لعن وطرد من رحمة الله(ﷻ)، ولا تنافي بينها.

أيضًا من المواطن التي ورد التعبير فيها بمادة (حفظ) دلالة على حفظ السماء، ما ورد في سياق بيان قدرة الله(ﷻ) وتفرُّده بالخلق والتدبير للكون، حيث حفظ السماء من أن تقع على الأرض، أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم، أو من استراق السمعِ بالشُهُب، وجعل فيها آيات من الشمس والقمر والنجوم إلى غير ذلك، مع استمرارية جحود المنكرين وإعراضهم عن تلك الآيات، وعدم إيمانهم بالله الواحد(٢)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأنبياء: ٣٢).

وفي التعبير عن حفظ السماء بصيغة اسم المفعول ﴿ مَّحْفُوظًا ۖ ﴾؛ دلالة على حفظها من الوقوع، وإشارة إلى القدرة على الإمساك، فأسند الحق هذا الحفظ إلى ذاته العلية من خلال ضمير الجمع في﴿ وَجَعَلْنَا ﴾، فهذا الإسناد أضفى على المفعول ﴿ٱلسَّمَآءَ ﴾ التشريف والتفخيم؛ لأن الذي تولى الحفظ هو الله(ﷻ)، فضلًا عن دلالة الحفظ على التعهد والعناية والاهتمام بالمحفوظ.

كما أطلق الحق(ﷻ) السقف على السماء، وهذا من التشبيه البليغ(٣)،

(١) الكشاف، للزمخشري، (٣٤/٤).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود، (٦٥/٦).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٥٨/١٧).

وهو المحذوف الوجه والأداة، أي: وجعلنا السماء كالسقف، ووجه الشبه هو التغطية مع العلو والارتفاع، فضلًا عن حسية الوجه؛ للتقريب إلى الأذهان، والإتيان في المشبه به بما يألفونه، كما أن في التشبيه بالسقف إشارة إلى " أن السماء ليست موضوعة على عمد من الأرض"(١).

وفي التعبير عن عِظَم قدرة الله(ﷻ)، وتفرُّدِهِ بالخلق والتدبير، ومدى رؤية المنكرين لتلك الآيات والتي منها خلق السماء على غير مثال، فضلًا عن حفظها من أن تقع على الأرض، ومع ذلك داوموا على إعراضهم وتوليهم﴿ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢ ﴾ فأكد الحق على ذلك من خلال اسمية الجملة، وكونها حالية بالواو، ثم الإخبار عن المبتدأ بصيغة اسم الفاعل ﴿مُعۡرِضُونَ﴾، دلالة على ثبوت إعراضهم، وإشارة إلى مدى استمرارهم في غيِّهم الذي هم فيه في الحال والاستقبال.

كذلك من المواطن التي ورد التعبير فيها بمادة (حفظ)، للدلالة على حفظ السماء ما ورد في سياق بيان قدرة الله للمنكرين الذين جعلوا له أندادًا، وأشركوا معه غيره، فهو الإله الواحد الذي خلق الأرض في يومين، ثم جعل فيها رواسي من فوقها، وجعل فيها أقواتها في أربعة أيام، ثم استوى إلى السماء وهي بخار وجعلها سبع سموات في يومين، مع تزيينها بالنجوم وحفظها من الشياطين المردة، بجعلها رجومًا لهم، حينما يسترقون السمع إلى الملأ الأعلى، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢ ﴾ (فصلت:١٢).

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٥٨/١٧).

وعبَّر النَّظم القرآني عن حراسة السماء بالنجوم من الشياطين بمادة (حفظ) في قوله: ﴿وَحِفْظًا﴾، دلالة على قوة حفظ السماء من الشياطين الذين يسترقون السمع، وكونهم يُقذفون من كل جانب بتلك الشهب، فالحفظ فيه قوة وعدم غفلة تتناسب مع عظمة خلق السماء واتساعها، فضلًا عن شدة الاهتمام والتفقد والرعاية من الخالق.

وفي التعبير بالمصدر ﴿وَحِفْظًا﴾، إشارة إلى ديمومة الحفظ لشأن السماء من الشياطين، وأن النجوم كما تزين السماء فهي تحفظها كذلك من الشياطين، فهو مفعول مطلق لفعل مقدر، أي: "وحفظناها حفظًا، يعني من المسترقة بالثواقب"(١)، حيث "أعد لكل شيطان نجمًا يرميه به ولا يخطئه، فمنها ما يحرق، ومنها ما يقتل ومنها ما يجعله مخبلًا"(٢).

كما أن المتأمل في قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ يلحظ الاستعارة التصريحية في لفظة ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ حيث شبه الحق الكواكب بالمصابيح بجامع الإنارة والهداية في كل؛ لأن المصباح معروف ومعهود للناس، وهو رمز للإنارة، فضلًا عن التنكير في ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾، الذي أفاد النوعية، فهي مصابيح متنوعة، منها ما ينير السماء، ومنها ما يقع على الشياطين، فتحفظ السماء من استراق السمع، فالتنكير للتنويع، وربما أفاد التعظيم؛ لأنها مصابيح عظيمة ليست كالمصابيح المعروفة.

ثم ختمت الآية بما يتناسب مع كمال القدرة وبديع الصنع والإتقان، وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، فلا يقدر على خلق ما سبقت

(١) الكشاف، للزمخشري، (١٨٦/٤).

(٢) تفسيرالفخر الرازي، (١١٠/٢٧).

الإشارة اليه إلا عزيز غالب، عليم بما خلق، وكل شيء عنده بقدر ومقدار.

*****

ثانيًا: بلاغة التعبير عن قدرة الله(ﷻ) في حفظ الكُتُب بمادة(حفظ).

ورد التعبير عن بيان قدرة الله في حفظ الكُتُب بمادة(حفظ) في (أربعة) مواطن **في القرآن الكريم**[١]، والكتب تشمل القرآن الكريم، وكذلك الكتاب الذي هو السجل المكتوب فيه أعمال العباد، فمن المواطن التي ورد فيها حفظ القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر:٩).

وقوله: ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ ورد في سياق بيان قدرة الله(ﷻ)، وإثبات كون نزول القرآن الكريم من عنده(ﷻ)، وأنه هو الحافظ له من التغيير والتبديل[٢].

وفي التعبير عن حفظ القرآن الكريم من قِبل الحق(ﷻ) بصيغة اسم الفاعل ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾، دلالة على ديمومة الحفظ له، وعدم وقوع التحريف أو التبديل فيه؛ لتكفل الحق(ﷻ) بحفظه من فوق سبع سموات، حيث اختص الحق حفظ القرآن الكريم دون غيره من الكتب السماوية، فناسب الاعتناء بكتاب الله مادة (حفظ) دون غيرها؛ لما فيها من الإمساك والحرص على المحفوظ ورعايته والاعتناء به، كما "شمل حفظه الحفظ من التلاشي، والحفظ من الزيادة والنقصان فيه، بأن

(١) هذه المواطن هي: سورة الحجر: ٩، ق: ٤، البروج: ٢٢، وقد أدرجت في هذا السياق (قدرة الله(ﷻ) في حفظ الكتب)، موطن سورة المائدة: ٤٤، بعد موطن سورة الحجر: ٩، إشارة إلى بيان كيفية أن الله حفظ كتابة –القران الكريم – من التبديل والتحريف؛ لتعهده(ﷻ) بحفظه، ولم يتعهد بحفظ الكتب الأخرى، حيث أوكل حفظها إلى الأحبار والرهبان، فوقع فيها التبديل والتحريف.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير، (٣٠٢/٤).

يسّر تواتره وأسباب ذلك، وسلّمه من التبديل والتغيير حتى حفظته الأمّة عن ظهور قلوبها"[١].

وقوله:﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ تأكيد ثانٍ بعد التأكيد الأول، حيث أكد الحق(ﷻ) أمر حفظ القرآن بـ (إنَّ) واسمها –نون العظمة– دلالة على عظمة الخالق، ثم تقديم الجار والمجرور على خبر إن ﴿لَهُۥ﴾ الذي أفاد التأكيد، كما دخلت اللام المزحلقة على خبر إنَّ ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾؛ لإفادة التوكيد كذلك، فالحق أكد على قضية حفظ القرآن الكريم؛ لكونه من عنده دون غيره؛ " لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان"[٢]، فضلًا عن مجيء الخبر بصيغة اسم الفاعل﴿لَحَٰفِظُونَ﴾، فكل هذه المؤكدات تُحاكي حجم الحفظ والعناية بأمر القرآن الكريم.

وفي مجيء الآية مؤكدة بهذه المؤكدات مع كون الخطاب للمؤمنين، خروج على مقتضى الظاهر، حيث خوطبوا خطاب المنكر(فنزل غير المنكر منزلة المنكر)؛ دفعًا لإنكار المنكرين وبثًّا للطمأنينة في قلوب المؤمنين الذين رأوا ما أصاب الكتب السابقة من تحريف وتبديل، فأكد لهم الخبر على خلاف مقتضى الظاهر[٣].

كما أن في ابتداء الآية بقوله:﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ ﴾، دلالة على تأكيد نزول القرآن من عند الله(ﷻ)، وليس من عند غيره، فهذا التأكيد " رد

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢١/١٤).

(٢) الكشاف، للزمخشري، (٥٥٠/٢).

(٣) ينظر: علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم البيان، د/ بسيوني فيود، صـ ٥٦، مؤسسة المختار، ط الثالثة ١٤٣٤هـ– ٢٠١٣م.

لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ (الحجر:٦)، ولذلك قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد (ﷺ) وبين يديه ومن خلفه رصد، حتى نزل وبلغ محفوظًا من الشياطين، وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة؛ فإنه لم يتول حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار، فاختلفوا فيما بينهم بغيًا فكان التحريف"(١).

وذكر الدكتور محمد عبد الله دراز (رحمه الله) السرَّ في تكفل الله(ﷻ) بحفظ القرآن دون الكتب السماوية الأخرى: "والسرُّ في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأن هذا القرآن جيء به مُصدِّقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليه، فكان جامعًا لما فيها من الحقائق الثابتة، زائدًا عليها بما شاء الله زيادته"(٢)، فضلًا عن تمكين الله(ﷻ) للغة العرب في الأرض دون غيرها من اللغات، فَحَفِظَ اللهُ اللغةَ التي حفظ من خلالها كتابه، فجعله قرآنا عربيًّا، وبلسان عربي مبين.

والمتأمل في آيات القرآن الكريم، يلحظ أن الله وَكَلَ حفظ التوراة إلى الربانيين والأحبار، فلم يحفظوها، وتبدلت وحُرِّفت، وذلك في قوله:﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ

(١) الكشاف، للزمخشري، (٢/٥٥٠).

(٢) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، د/ محمد عبد الله دراز، صـ ٩، مطبعة السعادة، ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م، بدون.

شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المائدة: ٤٤).

وقوله: ﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾، ورد في سياق الإخبار عن استحفاظ التوراة لعلمائهم وفقهائهم، فضيّعوا ما استُحفِظوا عليه وتبدلت التوراة، "أي: بسبب استحفاظ الله (تعالى) إياهم أمر التوراة، وأخذه العهد عليهم في العمل والقول بها، وعرفهم ما فيها فصاروا شهداء عليه، وهؤلاء ضيعوا لما استحفظوا حتى تبدلت التوراة، والقرآن بخلاف هذا"(١).

والمراد بالاستحفاظ في هذه الآية: طلب حفظ التوراة من قبل علماء اليهود وفقهائهم، بعناية وفهم، فالاستحفاظ هو "الاستئمان، واستحفاظ الكتاب، أمانة فهمه حقّ الفهم بما دلّت عليه آياته.... ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب الأمر بحفظ ألفاظه من التغيير والكتمان"(٢).

وفي التعبير بمادة (حفظ) في هذا السياق، إشارة إلى أن المطلوب هو الامساك والحفظ الذي ضده النسيان والإضاعة مع عدم التفريط فيه بما يؤدي إلى التبديل، فضلًا عن تبليغ ما في هذا الكتاب من شرائع وأحكام ومواعظ وأخلاق، وهذا التبليغ مفهوم من الاستحفاظ، فناسب ذلك التعبير بمادة (حفظ) دون غيرها، فهذا الحفظ "على وجهين: الأول: أن يحفظ فلا ينسى، الثاني: أن يحفظ فلا يضيّع، وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين: أحدهما: أن يحفظوه في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم، والثاني : أن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه"(٣).

(١) المحرر الوجيز، لابن عطية، (٥٤٦/١).
(٢) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠٩/٦)، بتصرف.
(٣) تفسيرالفخر الرازي، (٥/١٢).

وفي بناء الفعل الماضي لِمَ لَمْ يُسَمّ فاعله﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾، دلالة على أنه يمكن حمل هذا الاستحفاظ من جهة الأنبياء للربانيين والأحبار، أو يمكن حمله من جهة الله(ﷻ) كلَّف به الأنبياء والربانين والأحبار جميعًا، كما ذكر الزمخشري، أي: " بما سألهم أنبياؤهم حفظه من التوراة، أي بسبب سؤال أنبيائهم إياهم أن يحفظوه من التغيير والتبديل... ويجوز أن يكون الضمير في ﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ للأنبياء والربانيين والأحبار جميعًا ويكون الاستحفاظ من الله، أي كلفهم الله حفظه، وأن يكونوا عليه شهداء"(١).

فالاستحفاظ سواء كان من جهة النبيين للأحبار واليهود؛ لكون الأنبياء يوحى إليهم، وهم الواسطة بين الله وبين العباد، وكون علماء اليهود طلبوا حفظ التوراة منهم، حيث ذكر أبو السعود في قوله: " ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ أي بالذي استُحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة، حيث سألوهم أن يحفَظُوها من التغيير والتبديل على الإطلاق، ولا ريب في أن ذلك منهم (عليهم السلام) استخلافٌ لهم في إجراء أحكامِها من غير إخلالٍ بشيء منها"(٢)، أو كان الاستحفاظ من جهة الله(ﷻ) لهم جميعًا، فالمقصد أن أحبار اليهود لم يحفظوا ما استحفظوا، وحرَّفوه وبدَّلوه بدليل قوله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩ ﴾ (البقرة: ٧٩)، وقوله تعالى:﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا ... ﴾ (النساء: ٤٦).

والمتأمل في قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، يجد أن الواقع

(١) الكشاف، للزمخشري، (٦٢٤/٢١).

(٢) تفسير أبي السعود، (٤١/٣).

عليه الحفظ هو التوراة، والتي عبَّر عنها النَّظم بـ ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، من خلال التعريف بالإضافة الذي أفاد التعظيم لشأن المضاف- وهو التوراة- فهذا من خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، وهو (وضع المظهر موضع المضمر)؛ لإفادة التفخيم والتكريم لأمر التوراة، كما أن (مِنْ) مبيّنة لإبهام (ما) في قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾، فضلًا عن كون النبيين والربانيين والأحبار شهداء على كتاب الله، وعلى حفظه من التّبديل، ومن سوء الفهم والتأويل(١).

ومن المواطن التي ورد التعبير فيها بمادة (حفظ)، دلالة على كون القرآن الكريم محفوظًا، ما ورد في سياق إخبار الحق(ﷻ) عن أهل الكفر والتكذيب، وأن الله(ﷻ) قادر عليهم وهم في قبضته، محيط بهم، ثم بيَّن قدرته في حفظ كتابه الذي هو مصدر تكذيب المكذبين والطاعنين، وأنه في لوح محفوظ على سبيل الدوام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢ ﴾ (البروج:٢١-٢٢).

وفي التعبير عن حفظ القرآن الكريم بصيغة اسم المفعول ﴿مَّحۡفُوظِۭ﴾، دلالة على أنه واقع عليه الحفظ من الله(ﷻ)؛ لتكفله بحفظه دون الكتب الأخرى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ (الحجر:٩)، فضلًا عن ديمومة الحفظ، " أي: له الحفظ دائمًا على أتم الوجوه من كل خلل، ومن أن يصل إليه إلا الملائكة الكرام"(٢).

كما يمكن أن يكون المراد بحفظ القرآن هنا في قوله:﴿ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢ ﴾ كونه محفوظًا عن أن يمسه إلا المطهرون، حيث قال تعالى:﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٦/٢٠٩-٢١٠).
(٢) نظم الدرر، للبقاعي، (٢١/٣٦٨).

ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ ﴾ (الواقعة:٧٩)، ويحتمل كونه محفوظًا من اطلاع الخلق عليه سوى الملائكة، ويحتمل أنه لا يجري عليه تغيير وتبديل[١]، فهذه احتمالات واردة لحفظ القرآن الكريم، لا تعارض بينها، فالقرآن محفوظ في لوح، في كتاب مكنون، لايمسُّه إلا الملائكة المطهرون؛ لأن الله(ﷻ) هو الذي طهرهم دون غيره، فضلًا عن حفظه من التبديل والتحريف؛ لتكفل الحق بحفظه.

والمتأمل في قوله: ﴿ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢ ﴾، يلحظ النصّ في حفظه على اللوح، دلالة على تمكن الحفظ، وأنه مكتوب على اللوح، واللوح نفسه محفوظ بأمر الله(ﷻ) "من كل خلل ومن أن يصل إليه إلا الملائكة الكرام"[٢] وإشارة إلى أن حفظ القرآن بالنسبة للبشر يكون أقوى بكتابته وقراءته، حيث نص على ذلك القرآن الكريم، في كونه مقروءًا ومكتوبًا، حيث قال تعالى:﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢ ﴾ (البروج:٢١-٢٢)، فاللوح: "هو كل صفيحة عريضة من خشب أو عظم أو غيرهما"[٣]، فضلًا عن احتمالية كون اللوح المحفوظ والكتاب المكنون أمرًا واحدًا[٤]، وذلك في قوله ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ ﴾ (الواقعة:٧٧-٧٨)، وقوله:﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢ ﴾ (البروج:٢١-٢٢).

ومما ورد التعبير فيه بمادة (حفظ)، للدلالة على حفظ الكتاب –<u>الذي هو</u> سجل أعمال العباد–، ما ورد في سياق إنكار البعث والنشور، حيث قال

(١) ينظر: تفسير الفخرالرازي، (١٢٦/٣١).
(٢) نظم الدرر، للبقاعي، (٣٦٨/٢١).
(٣) نظم الدرر، للبقاعي، (٣٦٨/٢١).
(٤) ينظر: تفسير الفخر الرازي، (١٢٦/٣١).

المكذبون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾ (ق:٣)، فأكد الحق علمه بشؤنهم، ومن يموت منهم، وما تنقصه الأرض من أجسادهم، وقدرته في رصد أعمالهم في كتاب حافظ لذلك، ومحفوظ من التبديل، وذلك في قوله تعالى:﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾ (ق:٤).

وقوله: ﴿حَفِيظٌ ﴾، صيغة مبالغة بزنة (فعيل)، إما بمعنى فاعل، أي: حافظ لما أودعه الله، وكتب فيه، وإمّا بمعنى مفعول، أي: محفوظ من الشياطين، ومن الزيادة والنقصان، والمحو والتبديل(١).

فإذا كان ﴿حَفِيظٌ ﴾ بمعنى حافظ- وهو اسم فاعل- فهو مجاز عقلي، علاقته (المكانية)، لكون هذا الكتاب مكانًا لحفظ أعمال الخلائق، فأسند الحفظ إلى المكان، مبالغة في شدة حفظ ما فيه من أعمال، وأن هذا الكتاب حافظ لما فيه إلى يوم الدين، وإذا كان ﴿حَفِيظٌ ﴾ بمعنى محفوظ ، فهو واقع عليه الحفظ من الله(ﷻ)، حتى لا يتخلله زيادة أو نقصان، ولا تعارض بين المعنيان؛ لدلالتهما على ثبوت الحفظ ودوامه.

وفي التعبير عن حفظ الأعمال في الكتاب الذي يؤتى به للعبد يوم القيامة، كما في قوله: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ (الإسراء: ١٤)، وجعل الكتاب حافظًا لما فيه من أعمال، بدليل قوله تعالى: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ ﴾ (الكهف: ٤٩)، أو محفوظًا من الله بمادة (حفظ)، دلالة على عدم الظلم، والأمانة، والتحري في حفظ الأعمال، وجمعها في هذا الكتاب، مع اعتراف الخلق بذلك دون إنكار، فالمناسب

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري،(٣٧١/٤)، وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٨٣/٢٦).

لهذا السياق هو التعبير بمادة (حفظ) دون غيرها؛ لما في الحفظ من القوة والرعاية والإمساك على المحفوظ.

كما أن المتأمل في قوله: ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ يلحظ التعبير بظرف المكان، مع إضافته إلى نون العظمة، فضلًا عن تقديم المسند على المسند إليه ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ﴾؛ لإفادة التخصيص، أي: عندنا دون غيرنا، ثم نُكِّر المسند إليه ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ لإفادة التعظيم والتفخيم لشأن الكتاب "وهو تعظيم التعميم، أي عندنا كتاب كل شيء"(١)، وهذا الكتاب هو ما يقرأه العبد يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤ ﴾ (الإسراء: ١٤).

ثم وصف ﴿كِتَٰبٌ﴾ بـ ﴿ حَفِيظٌ ﴾، دلالة على تمكن الحفظ ؛ لمجيئه بصيغة المبالغة، وهذه المبالغة في الوصف هي المناسبة لسياق إنكار المكذبين بيوم الدين، وللبعث والحساب، فهم ينكرون رجوعهم بعد ذلك، حيث قالوا: ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ ﴾ (ق:٣).

لذلك أكد النَّظم الكريم قدرة الله(ﷻ) وعلمه بأحوالهم، وما تأكله الأرض وتنقصه من أجسامهم بقوله: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ ﴾ ، فهذا "ردّ لاستبعادهم الرجع؛ لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم، كان قادرًا على رجعهم أحياء كما كانوا"(٢).

(١) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٨٣/٢٦).
(٢) الكشاف، للزمخشري، (٣٧١/٤).

ثالثًا: بلاغة التعبير عن الملائكة بمادة (حفظ).

ورد التعبير عن الملائكة بمادة (حفظ) في(أربعة) مواطن في القرآن الكريم [(١)]، منها ما ورد في سياق بيان قدرة الله(ﷻ) وأن المرجع إليه وحده، وأنه(ﷻ) هو الذي يرسل ملائكته الكرام الكتبة؛ لحفظ أعمال العباد؛ حتى يُحاسبوا عليها يوم القيامة، ثم بعد انتهاء الأجل يُرسِلُ الملائكةَ الموكلة بقبض الأرواح، فينزعوا روح العبد دون تفريط، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ﴾ (الأنعام:٦١).

والمتأمل في قوله: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾، يلمح التعبير عن الملائكة الكرام بـ لفظة ﴿حَفَظَةً﴾، إشارة إلى أنهم يحفظون الأعمال بالكتابة والتدوين؛ لكونهم كرامًا كاتبين أي: " يكتبون الطاعات والمعاصي والمباحات بأسرها، كما يشعر بذلك ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ (الكهف: ٤٩)" [(٢)].

كما أن في التعبير عن إرسال الملائكة الحفظة بالفعل المضارع ﴿وَيُرۡسِلُ﴾ ، دلالة على تجدد هذا الإرسال، فهم يتجددون كل يوم وليلة، فـ " ملائكة الليل غير ملائكة النهار دائمًا إلى الموت"[(٣)].

وذكر الزمخشري لطيفة في إرسال الحفظة، وإن كان الله غني عن تلك الكتابة من الملائكة، ولكن ذلك لحكمة، حيث قال: "فإن قلت: الله (تعالى) غنيّ

(١) هذه المواطن هي: سورة الأنعام: ٦١، الرعد: ١١، الانفطار: ١٠، الطارق: ٤.
(٢) تفسيرالفخر الرازي، (١٦/١٣).
(٣) روح المعاني، للألوسي، (١٦٧/٤).

بعلمه عن كتبة الملائكة، فما فائدتها؟ قلت: فيها لطف للعباد؛ لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم، يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح، وأبعد عن السوء"(١).

وفي قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾، دلالة على أن الحفظة مستمرون في الكتابة حتى وفاة الإنسان عند أجله المقدر له من الرسل الموكلة بقبض الأرواح، دون زيادة أو نقصان، وهذا هو المفهوم من التعبير بنفي التفريط في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، وهو جملة حالية بالواو، قُدِّم فيها المسند إليه على خبره الفعلي؛ لإفادة تقوية الحكم وتوكيده، فالتفريط: "التواني والتأخير عن الحدّ، والإفراط مجاوزة الحدّ، أي: لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه"(٢).

كذلك من المواطن التي عبَّر فيها النَّظم عن حفظ الملائكة للعبد بمادة (حفظ)_ ما ورد في سياق إخبار الحق(ﷻ) عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأن له ملائكة يتعاقبون على العبد بالليل وبالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر(٣)، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ١١﴾ (الرعد:١١).

وفي التعبير عن تعهد الملائكة للإنسان بمادة (حفظ) في قوله:

(١) الكشاف، للزمخشري، (٣١/٢).

(٢) الكشاف، للزمخشري، (٣١/٢).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير، (٢٥٢/٤).

﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾، دلالة على شدة الحرص والعناية له من الجن والإنس وغير ذلك، لما في الحفظ من الحرص على المحفوظ، وعدم نسيانه أو إهماله، والحق وصف الملائكة بقوله: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ (التحريم:٦)، ومعنى ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، أي: " ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خَلَّوا عنه، وقال مجاهد: ما من عبد إلا له مَلَك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه"(١).

كما عبَّر النَّظم القرآني عن حفظ الملائكة للعبد من السوء بأمر الله بالفعل المضارع﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾، الذي يدل على تجدد الحفظ بتجدد الليل والنهار، فضلًا عن تجدد الملائكة الذين يحفظون العبد بأمر الله ليل نهار.

والمتأمل في قوله:﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ يلحظ التعبير عن الملائكة الحفظة بصيغة اسم الفاعل ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾، من الرباعي (عقّب)، إشارة إلى ديمومة وجود تلك الملائكة مع العبد وحفظهم له، فضلًا عن كون الحفظ بأمر الله(ﷻ)، ومعنى معقبات " جماعات من الملائكة تعتقب في حفظه وكلاءته"(٢).

من المواطن – أيضًا– التي عبَّر فيها النَّظم عن الملائكة بمادة (حفظ)، ما ورد في سياق تذكير الإنسان بنعم ربه(ﷻ) التي لا تحصى، والتي منها خلقه وتسويته وتصويره في أحسن صورة، فالفضل له(ﷻ) دون غيره، فلا ينبغي الاغترار والتكذيب بيوم الدين، والحال أن لديكم ملائكة تحصي أقوالكم وأفعالكم،

(١) تفسير ابن كثير، (٤/٢٥٣).

(٢) الكشاف، للزمخشري، (٢/٤٩٧).

فيجب على العبد أن يتحلى بالفضائل وينتهي عن الرذائل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ ﴾ (الانفطار: ١٠).

وفي التعبير عن الكرام الكتبة بصيغة اسم الفاعل ﴿لَحَٰفِظِينَ ﴾، دلالة على ديمومة الحفظ والعناية بالمحفوظ– وهو أعمال العباد– فضلًا عن أمانتهم فيما وُكِلَ إليهم، فيجب على العبد التحلي بمكارم الأخلاق، أي: "وإن عليكم لملائكةً حَفَظَة كرامًا، فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم"[١].

والمتأمل لنظم الآية يلحظ التأكيد على أمر الملائكة الحفظة ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾، فجاء التأكيد بـ (إن) واسمية الجملة مع اقترانها بواو الحال، ثم تقديم خبرها على المبتدأ – تقديم المسند على المسند إليه–؛ لإفادة التقوية والتوكيد، ثم الإخبار بصيغة اسم الفاعل﴿لَحَٰفِظِينَ﴾ المقترنة باللام المزحلقة التي أفادت التأكيد كذلك، فضلًا عن ديمومة الحفظ.

فهذه التأكيدات تعكس قوة حفظهم لما كُلِّفوا به من إحصاء الأعمال، فضلًا عن أمانتهم وعفتهم ونزاهتهم، فالحق(ﷻ) حينما أثبت لهم الحفظ، نزَّههم عن الزيادة والنقص؛ لكونهم كرامًا كاتبين، راسخون في وصف الكتابة التي يكتبونها في الصحف[٢].

(١) تفسير ابن كثير، (٨/٢١٦).

(٢) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي، (٢١/٣٠٥).

كذلك من المواطن التي ورد التعبير فيها بمادة (حفظ) عن الملائكة الحفظة، قوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ ﴾ (الطارق:٤).

وقوله: ﴿حَافِظٞ ﴾ ورد في سياق جواب القسم، حيث أقسم الحق(ﷻ) بالسماء وما فيها من كواكب، أن كل نفس عليها حافظ، سواء كان هذا الحافظ هو الله(ﷻ)، أو الملائكة الموكلة بحفظ الأعمال، فـ " الحافظ: هو الذي يحفظ أمرًا ولا يهمله؛ ليترتب عليه غرض مقصود"(١).

واختُلِفَ في معنى الحافظ، هل هو الله(ﷻ)، أم هو الملك الموكل بكتابة الأعمال؟ فذكر الزمخشري المعنيين، أي: "حافظ مهيمن عليها رقيب، وهو الله (ﷻ)﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢ ﴾ (الأحزاب:٥٢)، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا ۝٨٥ ﴾ (النساء :٨٥)، وقيل: ملك يحفظ عملها ويحصى عليها ما تكسب من خير وشر"(٢).

فالملائكة تحفظ الإنسان بحفظ الله وبأمره؛ لأن كل شيء مرده إليه(ﷻ) دون غيره، وهو الحافظ الحقيقي، حيث ذكر البقاعي أن المراد بالحافظ " الجنس من الملائكة، فبعضهم لحفظها من الآفات، وبعضهم لحفظها من الوساوس، وبعضهم لحفظ أعمالها وإحصائها بالكتابة، وبعضهم لحفظ ما كتب لها من رزق وأجل وشقاوة أو سعادة ومشي ونكاح وسفر وإقامة"(٣)، ثم ذكر أن الله هو الحافظ الحقيقي لكل شيء، حيث قال: " فإن قلت: إن الحافظ الملائكة، صدقت، وإن قلت: إنه الله، صدقت؛ لأنه الآمر لهم والمقدر على الحفظ ، والحافظ لهم من

(١) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٦٠/٣٠).
(٢) الكشاف، للزمخشري، (٧٢١/٤-٧٢٢).
(٣) نظم الدرر، للبقاعي، (٣٧٣/٢١).

الوهن والزيغ ، فهو الحافظ الحقيقي"(١).

والمتأمل لهذه الآية:﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ ﴾ يلحظ أنها جواب للقسم في قوله: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ ﴾ (الطارق:٣)، وجاءت مؤكدة بـ ﴿إِن﴾ النافية، ثم الإتيان بلفظ العموم ﴿ كُلُّ ﴾، الذي وقع مبتدأ، وهو مضاف، و﴿ نَفۡسٖ﴾ مضاف إليه؛ وفي مجيء المضاف إليه نكرة، دلالة على إرادة العموم والشمول لكل نفس، أي: "من الأنفس مطلقًا لا سيما نفوس الناس"(٢)، و﴿ لَّمَّا ﴾ حرف حصر بمعنى إلا، أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ(٣)، فالحق قصر صفة الحفظ على كل نفس، قصر صفة على موصوف، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، بطريق النّفي والاستثناء؛ لبيان قدرة الله وبديع صنعه في مخلوقاته، فضلًا عن نزاهة الملائكة فيما يكتبونه.

كما أن التعبير باسم الفاعل﴿حَافِظٞ﴾، دلَّ على ديمومة حفظ الملائكة للأقوال والأفعال، وأن هذا التأكيد الموجود في الآية من بدايتها إلى نهايتها فيه إنذار للمشركين الذين ينكرون البعث، فقد ذكر ابن عاشور قوله: "وقد تضمن هذا الجواب زيادةً على إفادته تحقيق الجزاء إنذارًا للمشركين بأن الله يعلم اعتقادهم وأفعالهم، وأنه سيجازيهم على ذلك"(٤).

*****

(١) نظم الدرر، للبقاعي، (٣٧٣/٢١).

(٢) نظم الدرر، للبقاعي ، (٣٧٣/٢١).

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود، (١٤١/٩)، وإعراب القرآن الكريم، د/ محمد محمود القاضي، مراجعة: ا.د/ كمال محمد بشر، وا.د/ عبد الغفار حامد هلال، صـ ١١٧٩، الصحوة، ط الأولى ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

(٤) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٦١/٣٠).

المبحثُ الثالثُ:

بلاغة الإخبار عن النبي(ﷺ) وبعض القصص والأمور بمادة (حفظ).

ويشتمل على ما يأتي:

أولًا: بلاغة التعبير عن نفي وصف النبي (ﷺ) بالحفيظ.

ثانيًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة هود(عليه السلام).

ثالثًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة شعيب(عليه السلام).

رابعًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة يوسف(عليه السلام).

خامسًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة سليمان(عليه السلام).

سادسًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة أهل سبأ.

سابعًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في نفي وصف أهل الكفر بالحفظة.

أولًا: بلاغة التعبير عن نفي وصف النبي (ﷺ) بالحفيظ.

عبَّر النظم الكريم عن نفي كون النبي(ﷺ) حفيظًا على الناس بمادة (حفظ) في (خمسة) مواطن[١]، منها ما ورد في سياق خطاب الله(ﷻ) نبيَّه(ﷺ) بما يخفف عنه أمر عصيان قومه له، وما يؤكد عصمته في جميع حركاته وسكناته[٢]، فطاعة النبي(ﷺ) هي طاعة لله(ﷻ)، فيما أمر به عن ربه، وذلك بامتثال أوامر الله، واجتناب ما نهى عنه؛ لأن النبي(ﷺ) ما ينطق عن الهوى، وأنه ليس عليهم برقيبٍ وحارسٍ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠ ﴾ (النساء: ٨٠).

والمراد بنفي الحفظ في قوله: ﴿ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾، هو نفي أن يكون النبي(ﷺ) رقيبًا وحارسًا عليهم، ومحاسبًا لهم، أي: ما أرسلناك أيها النبي" مهيمنًا عليهم تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم"[٣]، وإنما أرسلناك داعيًا، ومبشرًا ونذيرًا، فلست " حارسًا لهم ومسؤولًا عن إعراضهم، وهذا تعريض بهم وتهديد لهم بأنْ صَرَفه عن الاشتغال بهم، فيعلم أنّ الله سيتولّى عقابهم"[٤].

وفي التعبير عن نفي الحفظ بصيغة المبالغة ﴿حَفِيظٗا ﴾ والتي هي مبالغة من اسم الفاعل الثلاثي (حافظ)، دلالة على شدة المبالغة في نفي الحفظ عن النبي؛ لأنه (ﷺ) يريد الهداية لقومه، ويجهد نفسه، بل ويحزن لعصيانهم وعدم إيمانهم، فالتعبير بنفي الحفظ بتلك الصيغة، يعكس قوة حزنه(ﷺ) على

(١) هذه المواطن هي: سورة النساء: ٨٠، الأنعام: ١٠٤، ١٠٧، الشورى: ٦، ٤٨.
(٢) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي، (٣٣٧/٥).
(٣) الكشاف، للزمخشري، (٥٢٨/١).
(٤) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، (١٣٥/٥).

قومه ومدى اغتمامه لشأنهم؛ لذلك نفى الحق حفظه لأعمالهم ومحاسبتهم بتلك الصيغة.

كما أن في التعبير بالحفظ دون الرقابة، دلالة على أن " الرقيب هو الذي يرقبك لئلا يخفى عليك فعلك، وأنت تقول لصاحبك إذا فتش عن أمورك: أرقيب علي أنت... والحفيظ لا يتضمن معنى التفتيش عن الأمور والبحث عنها"(١)؛ لذلك ناسب السياق نفي كون النبي حفيظًا عليهم بصيغة المبالغة (حفيظ) دون (رقيب)؛ لأن وظيفته(ﷺ) هي التبليغ دون التفتيش والبحث فضلًا عن المحاسبة.

والمتأمل في قوله:﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠ ﴾، يلحظ التعبير بالجملة الشرطية، التي حُذف جوابُها، وتقديره: "فإنما عصى الله"(٢)، فالتولي يكون بالإعراض عن طاعة الله(ﷻ)، ولا شك أن المُعرض عن الطاعة هو عاصٍ لله(ﷻ)، وهذا العصيان يُحزن النبي(ﷺ)؛ لذلك سلَّى الله نبيَّه بهذه الآية حتى يُهدئ من روعه، أي: فما عليك أيها النبي إلا البلاغ المبين، ولست مرسلًا لمحاسبتهم، "فلا ينبغي أن تغتم بسبب ذلك التولي وأن تحزن، فما أرسلناك لتحفظ الناس عن المعاصي، والسبب في ذلك أنه (ﷺ) كان يشتد حزنه بسبب كفرهم وإعراضهم، فالله تعالى ذكر هذا الكلام تسلية له (ﷺ)عن ذلك الحزن"(٣).

وقد تناغمت بداية الآية مع ختامها، من حيث الابتداء بالشرط مع المضارع، فابتُدأت بقوله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾، دلالة على مكانة النبي(ﷺ)، وأنه مُبلِّغٌ عن ربه، وأن طاعة النبي فيما أمر الله به وعما نهى

(١) الفروق في اللغة، للعسكري، صـ ٢٠٠، بتصرف.
(٢) نظم الدرر، للبقاعي، (٣٣٧/٥).
(٣) تفسير الفخر الرازي، (١٩٩/١٠).

عنه، طاعة لله، فهذه الآية تكشف عن دور النبي(ﷺ) فيما يبلغ به قومه، وتنفي أن يكون محاسبًا ومعاقبًا لهم.

كذلك ورد التعبير عن نفي كون النبي(ﷺ) حافظًا لأعمال الناس، ومجازيًا لهم عليها، بمادة (حفظ) في قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (الأنعام:١٠٤).

وقوله تعالى:﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٧).

وقوله تعالى:﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الشورى:٤٨).

والمتأمل في قوله:﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾، وقوله:﴿ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾، وقوله:﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾، يلحظ اشتراك هذه المواطن في نفي هذا الوصف عن النبي(ﷺ)- وهو الحفظ- فلا يملك للناس حفظ أعمالهم، ولا محاسبتهم عليها، فضلًا عن أنه لا يقودهم قسرًا إلى نجاتهم، أي: لست "أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم"(١)، ولست "أقودكم قسرًا إلى ما ينجيكم، وأمنعكم قهرًا مما يرديكم"(٢).

كما أن نفي الحفظ في تلك المواطن ورد بصيغ المبالغة، ﴿بِحَفِيظٍ ﴾

(١) الكشاف، للزمخشري، (٥٢/٢).

(٢) نظم الدرر، للبقاعي، (٢٢٣/٧).

﴿حَفِيظًا﴾ ﴿حَفِيظًا﴾، دلالة على التأكيد والمبالغة في نفي هذا الحفظ عن النبي(ﷺ) لأعمال الناس، وإشارة إلى اقتصار دوره (ﷺ) على البلاغ دون هدايتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾ (الفرقان:٥٦).

فالحق نفى الحفظ عن النبي(ﷺ) في الموطن الأول من خلال جملة: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ ﴾(الأنعام:١٠٤)، فهي جملة منفية بـ (ما) النافية، العاملة عمل ليس[١]، والمسند إليه اسمها ﴿ أَنَا۠ ﴾، وفي تقديم النفي على المسند إليه ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ ﴾، دلالة على التخصيص، حيث نفي الحق صفة الحفظ عن النبي(ﷺ)، أي ما أنا، وإنما هو الله(ﷻ)، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦ ﴾ (الشورى:٦)، فضلًا عن تقديم الجار والمجرور على الخبر ﴿عَلَيۡكُم ﴾؛ لإفادة التقوية والتوكيد، وفي مجيء الخبر بصيغة المبالغة ﴿بِحَفِيظٍ﴾، دلالة على المبالغة في نفي كون النبي(ﷺ) حافظًا لأعمال الناس، وأنه لا يناله شيء من إحسان المحسن ولا عصيان العاصي، فناسب المعنى التعبير بتلك الصيغة دون غيرها، أي: " فلا ينالني من ذلك شيء فلا يرجع لي نفعكم ولا يعود عليّ ضرّكم، ولا أنا وكيل على نفعكم وتجنّب ضرّكم، فلا تحسبُوا أنّكم حتّى تمكرون بي بالإعراض عن الهدى والاستمرار في الضّلال"[٢].

ثم نفى الحق هذا الحفظ في الموطن الثاني بجملة:﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ

(١) ينظر: إعراب القرآن، د محمود القاضي، صـ ٢٧٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٤٢٠/٧).

حَفِيظًا﴾(الأنعام: ١٠٧)، حيث دخل النفي على الفعل الماضي، دلالة على نفي حدوث الجعل وانتهاء الحكم في تلك المسألة، فنفى الحق حفظ النبي(ﷺ) لأعمالهم، فضلًا عن كونه وكيلًا عليهم، ثم قُدِّم الجار والمجرور ﴿ عَلَيۡهِمۡ ﴾ للتقوية والتوكيد؛ لكون السياق في تسلية النبي(ﷺ) عما أصابه من إعراض المشركين عن الدعوة.

ثم نفي الحق هذا الحفظ عن النبي(ﷺ) في الموطن الثالث بقوله: ﴿ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾(الشورى:٤٨)، فنفي الحق كون النبي(ﷺ) مرسلًا لحفظ أعمال الناس، وأثبت له مهمته في هذا الإرسال، وذلك في قوله: ﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾، حيث عبَّر عن وظيفة النبي(ﷺ) واقتصار دوره على بلاغ الناس من خلال قصره على صفة البلاغ، قصر صفة على موصوف قصرًا إضافيًّا بطريق النفي والاستثناء، وهو قصر قلب لمن يتوهم أن النبي(ﷺ) يحفظ أعمال الناس، فقلب الحق هذا الاعتقاد، وأثبت له صفة البلاغ فقط دون غيرها، " أي: فإن لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيبًا ومحاسبًا عليهم"(١).

وجملة ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾، فيها تكريم لرسوله(ﷺ)، وتذكير بأن الله أرسله إلى خلقه، وأنه مبلغ عن ربه، وليس فوق هذا شيء، وأنك يا محمد مع هذه المنزلة من الله لست حفيظًا على عباده؛ لأن الله وحده هو الحفيظ؛ لكون هذا الحفظ من مقامات الألوهية(٢).

(١) تفسير أبي السعود، (٣٦/٨).

(٢) ينظر: آل حم الشورى– الزخرف– الدخان، أ٠د/ محمد محمد أبو موسى، صـ ٢٢٣، مكتبة وهبة، ط الأولى ١٤٣١هـ– ٢٠١٠م.

فالمتأمل لهذا الموطن يلحظ نفي الإرسال في قوله:﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ (الشورى:٤٨)، فنفى الحق إرساله(ﷺ) حفيظًا على الناس؛ ليثبت له بعدها مباشرة العلة من هذا الإرسال بطريق النفي والاستثناء ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾، فناسب هذا الموطن التعبير بالإرسال.

كما أن في التعبير بالحفيظ دون الوكيل، وختام الآية بنفي الوكالة عن النبي(ﷺ) في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام: ١٠٧)، دلالة على كون الحفيظ أعم من الوكيل؛ لاقتصار الوكيل على جانب واحد من الحفظ، بخلاف الحفيظ فحفظه يعم الجانبين(الشيء المحفوظ، ومن ولاّه على حفظه)، فـ " الحفيظ : الحارس ومن يُجعل إليه نظر غيره وحفظُه، وهو بمنزلة الوكيل إلاّ أنّ الوكيل يكون مجعولًا له الحفظ من جانب الشيء المحفوظ، والحفيظ أعمّ؛ لأنّه يكون من جانبه ومن جانب مَواليه"(١).

ثم ختمت الآية بنفي الوكالة عن النبي(ﷺ) في قوله:﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، بتقدم النفي على المسند إليه؛ لإفادة التخصيص، أي: ما أنت يا محمد الوكيل عليهم، وإنما الوكيل هو الله(ﷻ)، دلالة على تأكيد نفي الحفظ عن النبي(ﷺ)؛ لأن الحفظ لأعمالهم يكون في الخير والشر، أما نفي كونه وكيلًا لهم، يفيد عدم لوم النبي(ﷺ) على كفرهم؛ لأن الوكيل يكون في النفع فقط، فالوكيل من الوكالة، والمعنى: "أي: موكل على أرزاقهم وأمورهم"(٢)، وهذا فرق بين الحفيظ والوكيل، أي: "من جهتهم تقوم بأمرهم وتدبر مصالحهم، وقيل: المراد ما جعلناك عليهم حفيظًا تصونهم عما يضرهم وما أنت عليهم بوكيل تجلب لهم ما

(١) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور ، (٤٢١/٧).

(٢) تفسير ابن كثير، (١٨٧/٣).

ينفعهم"[١]،

ولما نفي الحق صفة الحفظ عن النبي(ﷺ) لأعمال الناس، أثبت في موطن آخر تلك الصفة لذاته العلية؛ لكونه خالق الناس ومصيَّرهم، وهو وحده الذي يحاسبهم على أعمالهم وشركهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦ ﴾ (الشورى: ٦).

وجملة ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾، جملة اسمية تفصح عن إسناد حفظ الأعمال إلى الله دون غيره، فهو وحده رقيب على الناس، يحفظ أعمالهم ليجازيهم عليها، فضاعف ذلك الإسناد من بلاغة مادة حفظ، " أي: رقيب وراع وشهيد على أعمالهم، لا يغيب عنه شيء من أحوالهم، فهو إن شاء أبقاهم على كفرهم وجازاهم عليه بما أعده للكافرين، وإن شاء تاب عليهم ومحا ذلك عينًا وأثرًا"[٢]، فالحق يقول لنبيِّه" لست مسؤولًا عنهم، ولست وكيلًا لهم، إنما أنا وكيلهم وإليَّ أمرهم"[٣].

والحق حينما أسند حفظ أعمال العباد إلى ذاته العلية، بيَّن دور النبي(ﷺ) في الدعوة من خلال جملة ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾، أي لست "بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان، إنما أنت منذر فحسب"[٤]، حيث قُدِّم النفي على المسند إليه؛ لإفادة التخصيص، إشارة إلى كون النبي(ﷺ) رسولًا يقتصر دوره على البلاغ، كما أن في نفي الوكالة عن النبي(ﷺ)، إشارة إلى أن

(١) روح المعاني، للألوسي، (٢٣٦/٤).

(٢) نظم الدرر، للبقاعي، (٢٤٧/١٧).

(٣) آل حم الشورى– الزخرف– الدخان، دراسة في أسرار البيان، أ٠د/ محمد أبو موسى، صـ ٤١.

(٤) الكشاف، للزمخشري، (٢٠٤/٤).

الوكيل الحق هو الله، فـ " الوكيل في صفات الله بمعنى المتولي القائم بتدبير خلقه؛ لأنه مالك رحيم بهم، وفي صفات غيره إنما يعقد بالتوكيل"(١).

كما أن نظم الآية مُفصِح عن الجو النفسي للنبي(ﷺ)، وما يعتريه من حزن وألم تجاه المعرضين عن الدعوة، الذين لم يُرد الله هدايتهم، وتركهم في خوضهم يلعبون، لكنَّ النبي(ﷺ) يُحمِّل نفسه مالا تُطيق؛ حرصًا على مصلحة الدين والدعوة، وعلى مصلحة الناس وهدايتهم حتى يفوزوا بالنعيم.

*****

ثانيًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة هود(عليه السلام).

ورد التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة هود(عليه السلام) في موطن واحد، في سياق الإخبار عن قوم هود(عليه السلام) قبل هلاكهم، وبيان أن الله(عز وجل) قادر على إهلاكهم واستخلاف غيرهم، فضلًا عن قدرته على حفظ هود(عليه السلام) ومن معه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ (هود: ٥٧).

وجملة ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾، جملة مؤكدة؛ للإفصاح عن قدرة الله(عز وجل) في استبدال القوم، وحفظه لأعمالهم، ومحاسبتهم عليها، أي: "أي رقيبٌ مهيمنٌ فلا تخفى عليه أعمالُكم فيجازيكم بحسبها، أو حافظٌ مستولٍ على كل شيء، فكيف يضُرّه شيءٌ وهو الحافظُ للكل"(٢)، فضلًا عن التعبير بلفظ الربوبية ﴿رَبِّى﴾، والتي فيها معنى التربية، أي: الذي رباني وتولى أمري، دلالة على القرب والاستجابة.

(١) الفروق في اللغة، للعسكري، صـ ٢٠١.

(٢) تفسير أبي السعود، (٢١٩/٤).

والمتأمل في ختام الآية ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، يلحظ كونها تعليلًا لما قبلها، من أمر الاستخلاف، ومدة لبث هود(عليه السلام) في قومه يدعوهم إلى عبادة الله، فقابلوها بالسخرية، وقولهم: ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (هود: ٥٣)، وغير ذلك مما قالوه، فكان تعليل ذلك﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، " فهو تعليل لاستخلاف غيرهم وتنزهه عن لحوق ضرر؛ لأن الحفظ : الحراسة، ويلزمها العلم والقدرة"(١)، وبعد ذلك حلَّ العذاب عليهم، ونَجَّى الله نبيَّه ومن معه برحمة منه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ (هود: ٥٨).

فمادة (حفظ) في هذا السياق تفصح عن قدرة الله(عز وجل)، وأنه رقيب عليهم، وحافظ لأعمالهم كبيرها وصغيرها، ومجازيهم عليها، فضلًا عن حفظه لهود(عليه السلام) ومن آمن معه حالة الهلاك حين أهلك القوم ليستخلف غيرهم، وذلك لشمولية الحفظ وعمومه، وهذا مفهوم من الإتيان بـ ﴿ كُلِّ ﴾ التي تدل على الشمول، ثم إضافتها إلى لفظ ﴿ شَيْءٍ ﴾ المنكر؛ لاتساع دائرة الحفظ وشموليته، فضلًا عن التعظيم والتفخيم في شأن قدرة الملك(عز وجل).

ثالثًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة شعيب(عليه السلام).

ورد التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة شعيب(عليه السلام) في موطن واحد، في سياق نصح نبي الله شعيب(عليه السلام) قومه، ودعوتهم إلى عبادة الله(عز وجل) وحده، وترك التطفيف في الكيل والميزان، وأمرهم بإيفائه للناس، مع نهيهم عن الإفساد

(١) نظم الدرر، للبقاعي، (٣١٣/٩).

في الأرض بالسرقة والإغارة وقطع الطريق، مبيّنًا لهم أن ما بقي من الحلال هو الخير الكامن مع الإيمان، وأنه ليس بحافظ لأعمالهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ (هود: ٨٦).

والمراد بنفي الحفظ في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾، أي: " ما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما بعثت مُبلِّغًا ومُنبِّهًا على الخير وناصحًا"(١)، أو"أحفظكم من القبائح، أو أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها، وإنما أنا ناصح مبلغ، وقد أعذرت إذ أنذرت ولم آل جهدًا، أو ما أنا بحافظ عليكم نعم الله تعالى لو لم تتركوا سوء صنيعكم"(٢)، وكل هذه المعاني ليس بينها تفضيل أو ترجيح؛ لكون السياق يحتملها ويحتضنها، ولا تضارب بينها، فشعيب(عليه السلام) ينفي أن يكون حافظًا لأعمالهم، وأنه سيجازيهم عليها؛ لأن ذلك ليس في مقدوره لكونه بشرًا، وعمله مقتصر على البلاغ فقط، كما يحتمل نفي حفظ القبائح التي يفعلونها، كما يمكن أن يراد نفي حفظه نِعَم الله(عز وجل) عليهم في وجوده بينهم ما داموا يرتكبون تلك المعاصي.

وفي التعبير عن نفي الحفظ في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾، دلالة على أن كل نفس بما كسبت رهينة، وأنه (عليه السلام) يقتصر دوره على الدعوة والتبليغ فقط، فليس مسؤولًا عن عدم إيمانهم، فإيمانهم وكفرهم بالنسبة له سواء في عدم التقليل من شأنه أو درجته؛ لأنه نبيٌّ مُرسلٌ مُكرمٌ، لا يملك الهداية لأحد.

والمتأمل في جملة ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾، يلحظ أنها جملة

(١) الكشاف، للزمخشري، (٢٠٤/٢).

(٢) روح المعاني، للألوسي، (٣١٢/٦).

حالية، أفادت عدم حفظ شعيب(عليه السلام) أعمال قومه أو مجازاتهم عليها، فضلًا عن حفظه لتلك النعم وحالهم الكفر وعدم الإيمان؛ لأنه بشرٌ، فهو رسول مرسل برسالة محددة، ثم ضاعف من بلاغة هذه الجملة دخول النفي على المسند إليه ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾؛ لإفادة التخصيص؛ لأن التخصيص نفى عن شعيب الحفظ ؛ لكونه ثابتًا لله(عز وجل)، فالحفيظ هو الله(عز وجل)، ثم الإخبار بصيغة المبالغة﴿بِحَفِيظٍ﴾؛ لتعكس حجم القضية، وتبالغ في قوة النفي.

كما أن بداية الآية تفصح عن شيء من دلالة نفي الحفظ في قوله: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾؛ لأنهم إذا تركوا خصالهم الذميمة، واقتنعوا برزقهم الحلال الذي بقي بعد ترك الحرام، فقد فازوا برضوان الله(عز وجل)، وهم بذلك يحفظون أنفسهم من سخط الله وغضبه عليهم، حيث تسبب عن عدم إيمانهم وتركهم ما هم عليه من معاصي إهلاكهم بالصيحة، فضلًا عن إضافة لفظة﴿بَقِيَّتُ﴾ إلى الله(عز وجل)، دلالة على التكثير والتفخيم، وفيه إشارة إلى أن قليل الله كثير.

وفي التقييد بجملة الشرط ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾، دلالة على حصول النفع والخير لمن ترك الحرام واغتنم الحلال وهو مؤمن، فالإيمان شرط لقبول العمل الصالح، كما أن في التعبير بـ (إن) الشرطية دون (إذا)، إشارة إلى أن شعيبًا يخاطب قومه عامة مؤمن وكافر، وأن قضية إيمانهم ليست مؤكدة؛ بسبب ما رآه منهم في أفعالهم التي جُبلوا عليها، والتي من الصعوبة بمكان تغيير قبلتهم، فبيَّن لهم أن الخير في البقية من الحلال، مع التقييد بالإيمان وتصديق النبي(عليه السلام).

رابعًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة يوسف(عليه السلام).

ورد التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة يوسف(عليه السلام) في ستة مواطن في القرآن الكريم[1]: **الموطن الأول قوله تعالى:** ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (يوسف: ١٢)، ورد في سياق مكر إخوة يوسف(عليه السلام) به، والتَّحيُّل على أبيهم، ومحاولة التلطف في إخراجه معهم، حتى يتمكنوا من تنفيذ ما تشاورا فيه، وخلصوا إليه – وهو إلقاؤه في الجُبِّ– حتى يَخلو لهم وجه أبيهم.

والمتأمل في قوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، يلحظ تأكيد حفظهم له من خلال التأكيد بـ (إنَّ)، واسمها، ثم تقديم الجار والمجرور على خبرها، فضلًا عن اسمية الجملة، وكونها حالية بالواو، ثم الإخبار بالحفظ من خلال صيغة اسم الفاعل﴿لَحَٰفِظُونَ ﴾ التي تفيد ثبوت الحفظ ودوامه في الحال والاستقبال، دلالة على إظهار حسن نيّتهم أمام أبيهم في شأن يوسف(عليه السلام)، وأن غرضهم في ذلك هو إدخال البهجة والسرور عليه(عليه السلام)، وهذا في الظاهر، ولكن الباطن خلاف ذلك.

وقد تعانق التعبير بالحفظ مع إلحاحهم قبل ذلك على أبيهم بإرساله معهم، وكانت منهم محاولات بدليل قوله: ﴿ ...مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (يوسف: ١١)؛ لذلك عبَّر النَّظم القرآني بالحفظ دون غيره؛ لحماية يوسف من الخطر الذي ربما يهدده وهم يتسابقون، دلالة على ما في الحفظ من الإمساك وعدم النسيان والتعهد والرعاية، فناسب السياق التعبير بتلك الصيغة دون غيرها.

(١) هذه المواطن هي: سورة يوسف: ١٢، ٥٥، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٨١.

وفي طلبهم من أبيهم إرساله بقولهم: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾، دلالة على أن أباهم كان يمسكه ويصحبه دائمًا(١)، وهذا من فرط حبه له، وتنبئه بأمر نبوته.

الموطن الثاني قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ (يوسف: ٥٥)، ورد في سياق حوار يوسف(عليه السلام) مع الملك بعد اعتراف النسوة بعفته، وقول امرأت العزيز: ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (يوسف:٥١)، وطلب الملك الإتيان به، حيث أخبره بالتمكين وما يقتضيه من الأمانة والوفاء به، فطلب يوسف أن يكون على خزائن الأرض، بسبب أمانته وعلمه.

وجملة ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾، تفصح عن سبب تمكين يوسف(عليه السلام) في الأرض، وجعله على خزائن مصر، وذلك لِما في الحفظ من الأمانة والعفة، والإمساك بالمحفوظ مع عدم نسيانه، فضلًا عن العلم الذي يتعانق مع الحفظ للقيام بتلك المهمة الصعبة، فَيُمكِّنان له السيادة والريادة والعلو في الأرض، وخاصّة أنه نبي مُكرَّم من المَلك(عز وجل)، أي: "أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف، وصفًا لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه"(٢).

والمتأمل في قوله: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾، يلمح أسلوب الفصل بين الجملتين، لما بينهما من شبه كمال الاتصال؛ لأن جملة ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ أثارت سؤلًا فحواه: ما سبب هذا الطلب، وما هي مؤهلاتك

(١) تفسيرالبحر المحيط، لأبي حيان (٥/٢٨٦).
(٢) الكشاف، للزمخشري، (٢/٤٦٣).

لتكون على خزائن مصر؟ فجاءت الجملة الثانية لتجيب عن هذا السؤال: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾، فاجتماع الحفظ مع العلم سبب للتمكين وجعله على خزائن الأرض، "فأخبر بما جمع الله له من أداتي الحفظ والفهم، مع ما يلزم الحفظ من القوة والأمانة؛ لنجاة العباد مما يستقبلهم من السوء، فيكون ذلك سببًا لردهم عن الدين الباطل إلى الدين الحق"(١).

كما أن في التعبير بالحفظ بصيغة المبالغة ﴿ حَفِيظٌ ﴾، دلالة على شدة الحفظ وصيانة الأمانة، وإشارة إلى مقدرة يوسف(عليه السلام) على تلك المسؤولية، وأنها ليست أمرًا هيّنًا، فصيغة المبالغة تعكس استطاعته(عليه السلام) على تحمل أعباء خزائن الأرض، وتحمل تبعاتها، مع الاهتمام والرعاية والتفقد.

الموطن الثالث والرابع والخامس قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥ ﴾ (يوسف: ٦٣-٦٥).

وقوله: ﴿لَحَٰفِظُونَ ﴾ و﴿حَٰفِظٗا﴾ ﴿وَنَحۡفَظُ﴾، ورد في سياق الإخبار عن حوار إخوة يوسف(عليه السلام) مع أبيهم- نبي الله يعقوب(عليه السلام)- وطلبهم منه إرسال أخيهم- بنيامين- معهم؛ لكونهم مُنعوا الكيل بعد ذلك إن لم يأتوا به، حيث أكدوا حفظهم له من أن يصيبه مكروه، ولكن نبي الله يعقوب(عليه السلام) أوكل الحفظ إلى الله دونهم؛ بسبب عدم حفظهم ليوسف قبل ذلك، ثم إنهم حينما فتحوا متاعهم

(١) نظم الدرر، للبقاعي، (١٣١/١٠).

وجدوا بضاعتهم موجودة مع الطعام؛ فكان ذلك بمنزلة التطمين لقلب أبيهم على بنيامين، في كون هذا الملك على هذا الحال من الكرم والجود، فضلًا عن أنهم يجلبون الطعام لأهلهم، ويحفظون أخاهم من السوء، ويزدادوا بإرساله معهم كيل بعير.

والمراد بالحفظ في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، هو الاهتمام والرعاية وعدم التفريط في أمر أخيهم، أي: حافظون له من أن يصيبه مكروه، فهذه المقولة قالوها لأبيهم قبل ذلك في شأن يوسف(عليه السلام)، فضيعوه ولم يحفظوه(١)؛ لذلك أوكل يعقوب الحفظ إلى الله(عز وجل)؛ لكونه أرحم الراحمين، وخير الحافظين.

فهذه جملة اسمية مؤكدة بـ (إنَّ) واسمها، وتقديم الجار والمجرور على الخبر ﴿لَهُۥ﴾؛ لإفادة التوكيد، فضلًا عن دخول اللام المزحلقة على الخبر للتأكيد– أيضًا– ثم الإخبار عن عدم إصابته مكروه وسوء بصيغة اسم الفاعل﴿لَحَٰفِظُونَ﴾، دلالة على دوام حفظهم ورعايتهم لأخيهم.

والمتأمل في جملة ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، يلحظ أنَّ في تأكيدهم على حفظ أخيهم شيئًا أُجبروا عليه، فضلًا عن خجلهم من أبيهم في هذا التأكيد، وقد كان منهم هذا التأكيد من قبل في يوسف(عليه السلام) ولم يحفظوه، ولكنهم يَصدُقُون في أمر بنيامين؛ لعدم إسرارهم بعداوته، وأنهم يريدون الرجوع إلى مصر؛ لجلب الطعام وزيادة حمل بعير؛ لحماية أهلهم من الجوع، وأن هذا لا يحدث أبدًا إلا بوجود بنيامين معهم، كما أن في حفظهم لأخيهم حفظًا لأنفسهم وأهلهم من الهلاك.

ثم بعد ذلك أوكل نبي الله يعقوب(عليه السلام) الحفظ إلى الله(عز وجل) دونهم؛ لأنهم

(١) ينظر: روح المعاني، للألوسي، (١٢/٧).

لم يحفظوا يوسف قبل ذلك فقال: ﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۚ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ ﴾(يوسف: ٦٤).

وجملة ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ ﴾، تدل على أن نبي الله يعقوب(عليه السلام) توكل على الله فيه ودفعه إليهم، فالله " حفظه أبلغ من حفظ غيره؛ لعلمه بما بطن وظهر "(١)، كما أن قوله:﴿حَٰفِظٗا﴾، وقع تمييزًا، ويجوز أن يكون حالاً(٢)، فـ "قرأ حفص والأخوان وخلف بفتح الحاء وألف بعد الحاء وكسر الفاء، والباقون بكسر الحاء وإسكان الفاء"(٣).

فالقراءة الأولى ﴿حَٰفِظٗا﴾ بالألف على التمييز، والتفسير على تقدير: هو خير لكم حافظًا كقولهم: هو خيرهم رجلاً، وقيل: على الحال، والباقون: ﴿حَٰفِظٗا﴾ بغير ألف على المصدر، أي: خيركم حفظًا، فحفظ الله لبنيامين خير من حفظكم(٤).

فهذه القراءات تدل على ديمومة حفظ الله(عز وجل) في كل وقت ومكان، وأنه وحده خير من يحفظ بنيامين وإخوته بعينه التي لا تنام؛ لأنه لما وكل حفظ يوسف(عليه السلام) إلى إخوته ضيَّعوه وأودوا به إلى الهلاك، فلما طلبوا منه أرسال بنيامين معهم، وأكدوا حفظهم له، دفع ذلك الحفظ إلى الله(عز وجل)؛ لكونه خير الحافظين.

وحينما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم مع طعامهم المجلوب للأهل، فكان ذلك تطمينًا لقلب أبيهم في إرسال بنيامين معهم؛ لكون هذا الملك من صفاته

(١) عمدة الحفاظ، للسمين الحلبي، (٤٣٢/١).
(٢) ينظر: الكشاف، للزمخشري، (٤٦٧/٢).
(٣) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبد الفتاح القاضي، صـ ٢٠٣.
(٤) روح المعاني، للألوسي، (١٣/٧).

الكرم والجود، وهذا يستدعي حفظهم لأخيهم من السوء، وزيادة كيل بعير في إرساله معهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾(يوسف: ٦٥).

وقولهم: ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾، توحي بحفظ بنيامين من المكاره حسب ما وعدوا أباهم قبل ذلك، وتفرعه على ما تقدم باعتباره دلالة على إحسان الملك، فإنه مما يعين على الحفظ[1]، فإخوة يوسف(عليه السلام) ينقلوا لأبيهم صورة ملك مصر الذي أكرمهم، وتحاور معهم، والذي كان من كرمه أن وضع لهم متاعهم الذي جاءوا به من أرضهم، مع الطعام الذي أخذوه من مصر؛ لحماية أهلهم من الجوع.

وعبَّر النَّظم القرآني عن حفظ أخيهم بصيغة المضارع﴿وَنَحۡفَظُ﴾، دلالة على تجدد الحفظ منهم له في الحال والاستقبال؛ لعدم وجود مخاوف من هذا الملك الكريم، فضلًا عن أنهم يريدون له السلامة لما في ذلك من زيادة حمل بعير، فبقاء بنيامين فيه مصلحة لهم، ولذلك لَمَّا اتُّهم بنيامين بالسرقة، حزن أخوته لذلك.

كما أن التعبير بالمضارع يوحي بانتظامه في سلك الأفعال المضارعة الموجود في الآية ﴿وَنَمِيرُ ... وَنَحۡفَظُ ... وَنَزۡدَادُ﴾، والتي تدل على التجدد الذي يتناسب مع تجدد جلب الطعام من مصر، وهذا التجدد لن يكون إلا بوجود بنيامين، فكان حفظ أخيهم بسبب كرم الملك، وعدم وجود مخاطر، فلن يصيبه شيء، فضلًا عن زيادة حمل بعير، "فكأنهم قالوا: بضاعتُنا حاضرةٌ فنستظهر بها

(١) ينظر: روح المعاني، للألوسي، (١٤/٧).

ونمير أهلَنا ونحفظ أخانا فما يصيبه شيءٌ من المكاره، ونزداد بسببه غيرَ ما نكتاله لأنفسنا كيلَ بعير، فأيَّ شيء نبتغي وراءَ هذه المباغي"[1].

الموطن السادس والأخير في التعبير بمادة **(حفظ)** في سياق قصة يوسف (عليه السلام)، ما ورد في سياق حوار إخوة يوسف(عليه السلام) في شأن ما اتُّهم به بنيامين من أمر سرقة صواع الملك، حيث قال لهم كبيرهم بعدما حاولوا مع الملك أخذ أحدهم مكانه، ولكنَّه أبى أن يأخذ إلا من وجد متاعه عنده، فساعتها قال لإخوته: ارجعوا إلى أبيكم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١﴾ (يوسف: ٨١).

فالمراد بالحفظ هنا: العلم، ونفي الحفظ هو نفي علمهم بما في الغيب، أي: "وما كنّا للغيب: للأمر الخفي حافظين، أسرق بالصحة أم دُسّ الصاع في رحله ولم يشعر"[2].

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾، يفصح عن حجتهم في أمر بنيامين، وعدم علمهم بما خفي عنهم، فضلًا عن تدخلهم في شأن استرقاقه عند الملك؛ لكونه فعل أمرًا غير محمود، ولم يتوقعونه منه، لدرجة أنهم قالوا لأبيهم: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾ (يوسف: ٨٢)، ففي سؤال القرية مجاز مرسل (علاقته المحلية)، حيث عبر بالمحل –القرية– وأراد أهلها؛ مبالغة في شيوع أمر تلك السرقة، وعدم إخفائها، لدرجة أنك لو سألت الجمادات نفسها لأخبرتك، ونطقت بذلك.

(١) تفسير أبي السعود، (٤/٢٩١).

(٢) الكشاف، للزمخشري، (٢/٤٧٦).

كما أن في التعبير عن نفي حفظ الغيب بصيغة اسم الفاعل:﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾، يوحي بديمومة نفي الحفظ للغيب في كل زمان ومكان؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله، وفيه إشارة إلى أن هناك أمرًا غائبًا عن أعينهم لم يفهمونه في هذا الشأن، "فلعل حيلة دبرت في ذلك غاب عنا علمها كما صنع في رد بضاعتنا"(١).

والمتأمل في قوله:﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾، يلحظ أن قولهم: ابنك سرق، شهادة بما شاهدوه من أمر إخراج الصاع من وعاء أخيهم أمام أعينهم، فهذه حيلة من يوسف(عليه السلام) لأخذ أخيه منهم دون أن يشعروا بذلك.

*****

خامسًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة سليمان(عليه السلام).

ورد التعبير بمادة (حفظ) في قصة سليمان(عليه السلام) في موطن واحد، في سياق الإخبار عمَّا سخره الله لنبيِّه سليمان(عليه السلام) من الشياطين الذين يغوصون في البحر فيستخرجوا الجواهر، فضلًا عن الأعمال الشاقة من بناء المدن والقصور وغيرها، والله حافظهم من أن يزيغوا عن أمره(٢)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنبياء: ٨٢).

والمراد بحفظ الله للشياطين في قوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾، أي: قادرين على إمساكهم من " أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد

(١) نظم الدر، للبقاعي، (١٩٣/١٠).
(٢) ينظر: الكشاف، للزمخشري، (١٢٧/٣).

منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه"[١]، وقيل: "وكل بهم جمعًا من الملائكة، وجمعًا من مؤمني الجن، وقال الزجاجُ: كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عمِلوا وكان دأبُهم أن يفسدوا بالليل ما عمِلوه بالنهار"[٢].

كما ذكر الرازي وجوهًا عما حُفظ عنه الشياطين، فقال: "أحدها: أنه تعالى كان يحفظهم عليه لئلا يذهبوا ويتركوه، وثانيها؛ قال الكلبي: كان يحفظهم من أن يهيجوا أحدًا في زمانه، وثالثها: كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا فكان دأبهم أنهم يعملون بالنهار ثم يفسدونه في الليل"[٣]، وهذه الوجوه ليس بينها تعارض، ولا تفاضل، فيمكن أن يكون الغرض من الحفظ هو إمساكهم حتى لا يتركوا نبي الله سليمان(عليه السلام)، أو حفظهم الناس، أو حفظهم من فساد عملهم الذي عملوه بالنهار.

وفي التعبير عن قدرة الله على الشياطين بالحفظ:﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾، دلالة على ما في الحفظ من الإمساك بالمحفوظ وعدم نسيانه والقدرة عليه، فضلًا عن التعبير بصيغة اسم الفاعل﴿حَافِظِينَ﴾، التي تدل على ثبوت الحفظ ودوامه، فالحق أسند الحفظ لذاته العلية من خلال مجيء اسم كان جمعًا؛ تعظيمًا وتشريفًا لقدرته، ثم تقديم الجار والمجرور على خبر كان؛ لإفادة التوكيد.

وفي تخصيص الشياطين بالعمل هنا، دلالة على مدى قدرة الله في تسخير هذا المخلوق، لكونه " أكثر شيء تمردًا وعتوًا ، وألطف شيء أجسامًا"[٤].

(١) الكشاف، للزمخشري، (١٢٧/٣).
(٢) تفسير أبي السعود، (٨١/٦).
(٣) تفسير الفخر الرازي، (٢٠٢/١٢).
(٤) نظم الدرر، للبقاعي، (٤٥٩/١٢).

سادسًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة أهل سبأ.

عبَّر النَّظم القرآني بمادة (حفظ) في قصة أهل سبأ، في موطن واحد فقط، وذلك في سياق الإخبار عن أهل سبأ بعد إهلاكهم، حيث بين الحق(ﷻ) أنهم اتبعوا خطوات الشيطان، ولم يكن له عليهم سلطان بالقهر، وإنّما كان بالوسوسة فقط، والله أراد بهذا الاختبار التمييز بين المؤمن بالآخرة من غيره، مع علم الله(ﷻ) بذلك، وأنه لا يخرج شيء عن هيمنته وقدرته، فهو على كل شيء رقيب وحفيظ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ (سبأ: ٢١).

والمراد بالحفظ في قوله: ﴿حَفِيظٞ﴾، أي: عالم وقادر ومهيمن على خلقه، فهو(ﷻ) قادر على منع إبليس عن الوسوسة لأهل سبأ، ولكنها حكمة الله(ﷻ)؛ للتمييز بين المؤمن بالآخرة من الشاك فيها، فـ " الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم، عالم بما سيقع، فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه حفظه ولا العاجز "(١)، فـ " الحفيظ: الذي لا يخرج عن مقدرته ما هو في حفظه، وهو يقتضي العلم والقدرة"(٢).

وفي التعبير عن قدرة الله(ﷻ) ومدى هيمنته، وعلمه بأمر خلقه بصيغة المبالغة ﴿حَفِيظٞ﴾، دلالة على قوة الحفظ والعلم بما سيقع من أهل سبأ وغيرهم؛ لذلك عبَّر بلفظ العموم ﴿كُلِّ﴾، مع التنكير في لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾، أي: عموم الأشياء كلها في قدرته وتحت إرادته(ﷻ)، فـ " أفاد عموم ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾

(١) تفسير الفخر الرازي، (٢٥/٢٥٥).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٢/١٨٥).

أنه لا يخرج عن علمه شيء من الكائنات فنزل هذا التذييل منزلة الاحتراس عن غير المعنى الكنائي من قوله : ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٖۗ﴾ ، أي: ليظهر ذلك لكل أحد فتقوم الحجة لهم وعليهم"(١).

فالتعبير بمادة (حفظ) هو المناسب لبيان قدرة الله(ﷻ) وعلمه بأمور خلقه في هذا السياق، فضلًا عن الإفصاح عن كون كل شيء عنده بقدر وحكمة، فالأمور تجرى بمقادير، فالحفظ فيه قوة وإمساك على المحفوظ.

*****

سابعًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في نفي وصف أهل الكفر بالحفظة.

ورد التعبير بمادة (حفظ) في نفي كون أهل الكفر حفظة على المؤمنين، في موطن واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾ (المطففين:٣٣).

وقوله: ﴿حَٰفِظِينَ﴾، ورد في سياق الإخبار عن أهل الكفر الذين سَخِروا من المؤمنين بالضحك والتغامز والاستخفاف بهم، وذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾(المطففين:٣٣)، وهذه الآيات نزلت في مشركي مكة، وهم: " أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم: كانوا يضحكون من عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهزءون بهم"(٢).

والمراد بالحفظ في قوله: ﴿حَٰفِظِينَ﴾، الرقابة على الأحوال، وإحصاء الأعمال، أي: أن هؤلاء الكفار لم يرسلوا على المؤمنين من قبل الحق(ﷻ) "

(١) السابق، (١٨٥/٢٢).

(٢) الكشاف، للزمخشري (٧١٠/٤).

مُوكّلين بهم، يحفظون عليهم أحوالهم، ويهيمنون على أعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم؛ وهذا تهكم بهم"(١).

والمتأمل في جملة ﴿ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ ﴾، يلحظ كونها جملة حالية بالواو، أي: والحال أن المشركين لم يرسلهم الله(ﷻ) رقباء وشهداء على المؤمنين، يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم، حتى يتسنى لهم الحكم عليهم بالضلال أو الرشد، فهذه الآية فيها توبيخ وزجر لهؤلاء الكفرة بسبب صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، فضلًا عن أن يحكموا عليهم بالضلال وغيره، كما في قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ ﴾.

فالحق نفى إرسال المشركين شهداء على المؤمنين حاكمين عليهم بصيغة اسم الفاعل ﴿ حَٰفِظِينَ ﴾، الذي وقع حالًا؛ لإفادة ديمومة نفي هذا الحفظ منهم؛ لكون هذا الحفظ من الله(ﷻ) وبما كلّف به بعض ملائكته الحفظة، فضلًا عن دخول النفي على الفعل الماضي المبني لِمَ لَمْ يُسمّ فاعلة، دلالة على قطعية نفي هذا الإرسال من الحق، كما حُذف الفاعل– وهو الله– تعظيمًا وترفُّعًا عن أن يُرسل الحق هؤلاء الكفرة ليكونوا حفظة على عباده المؤمنين، فالحذف لعلو شأن الملك(ﷻ)، ثم التعبير عن المؤمنين بالجار والمجرور ﴿ عَلَيۡهِمۡ ﴾، " أي: على الذين آمنوا خاصة حتى يكون لهم بهم هذا الاعتناء في بيوتهم وخارجها عند مرورهم وغيره"(٢).

فالتعبير عن انشغال الكفرة بأحوال المؤمنين بمادة (حفظ) هو المناسب لحالهم مع المؤمنين، لما في الحفظ من المواظبة على المحفوظ، وهؤلاء لما شُغلوا بأحوال المؤمنين، وأمورهم في شأن مرورهم عليهم، وحين انقلابهم إلى

(١) السابق ، (٤/٧١٠).
(٢) نظم الدرر، للبقاعي (٢١/٣٣٢).

أهلهم بالسخرية وغير ذلك، فكأنهم وضعوا أنفسهم موضع الحَكم الذي يحكم عليهم بموازينهم، فنفى الحق عنهم ذلك بقوله:﴿ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴾، بكل ما تحمله تلك الجملة من الحال والنفي وحذف فاعل الإرسال، والتعبير بمادة (حفظ) ومجيئها بصيغة اسم الفاعل﴿حَٰفِظِينَ ﴾، ولذلك بشَّر الله المؤمنين بالضحك يوم القيامة في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥﴾ (المطففين: ٣٤ – ٣٥).

*****

خـاتـمـــةٌ

الحمد لله في البدء والختام، حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على من ختم الله به الرُّسل والرِّسالات، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا بحث عنوانه" **بلاغة التعبير بمادة(حفظ) في القرآن الكريم**"، وقف الباحث فيه على مواطن التعبير بمادة (حفظ) في القرآن الكريم، في سياقاتها المتنوعة، حيث بلغت (أربعة وأربعين) موطنًا، مع محاولة استخراج الأسرار البلاغية المكنونة خلف التعبير بتلك المادة التي تنوعت دلالتها على حسب السياق وقرائن الأحوال، ومن خلال تلك الدراسة يمكن عرض النتائج التي انتهى إليها الباحث، والتي أهمها ما يأتي:

أولًا: تنوعت دلالة التعبير بمادة (حفظ) في القرآن الكريم؛ نظرًا لتنوع السياق الذي وردت فيه المادة، فدلت على عدة دلالات، منها:

– دلالة الحفظ على المواظبة على الصلوات والقيام عليها بتأديتها في أوقاتها، وعدم نسيانها، كما في قوله: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ (البقرة: ٢٣٨)، وقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾(المؤمنون:٩).

– دلالة الحفظ على الإمساك عن الحلف والنهي عنه، وحفظ الأيمان والحدود، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ ﴾ (المائدة: ٨٩)، وقوله تعالى: ﴿...وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١١٢ ﴾ (التوبة: ١١٢).

– دلالة الحفظ على العفة والطهارة في حفظ الفرج، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ (النساء: ٣٤)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ ﴾ (المؤمنون: ٥).

- دلالة الحفظ على التعهد والعناية من الخالق بشأن السموات والأرض، وحفظ السموات من اقتراب الشياطين لها باستراق السمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ١٧ ﴾ (الحجر: ١٧) وقوله:﴿ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ ﴾ (الصافات: ٧)، فضلًا عن القدرة على الإمساك كما في قوله: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفَۢا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢ ﴾ (الأنبياء: ٣٢).
- دلالة الحفظ على القوة والإمساك على المحفوظ مع عدم نسيانه أو حدوث تحريف فيه أو تبديل، وذلك في القرآن الكريم، كما قال تعالى:﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ (الحجر: ٩)، وقوله تعالى: ﴿ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظٖ ٢٢ ﴾ (البروج: ٢٢).
- دلالة الحفظ على الإثبات وعدم نسيان ما كُتب من أعمالٍ في سجل الصحائف، كما في قوله: ﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ ﴾ (ق: ٤).
- التعبير عن الملائكة بالحفظة التي تحصي أعمال العباد، كما في قوله:﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً ... ﴾ (الأنعام: ٦١) وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ ﴾ (الانفطار: ١٠)، وقوله: ﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤ ﴾ (الطارق: ٤).
- دلالة الحفظ على الرقابة والمحاسبة والمعاقبة، وذلك في سياق نفي كون النبي(ﷺ) حفيظًا على الناس ومجازيًا لهم على أعمالهم، كما في قوله:﴿ مَّن

يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ ﴾ (النساء: ٨٠)، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۚ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٧).

وكذلك الشأن في سياق الإخبار عن هود(عليه السلام)، فإنه لم يُبعث لحفظ أعمال قومه ومجازاتهم عليها، وإنما بُعث مُبلِّغًا عن ربه بشريعة، كما في قوله تعالى:﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ ﴾ (هود: ٨٦).

فضلًا عن إثبات هذا الوصف للحق(عز وجل)، فهو وحده الرقيب والمعاقب والمهيمن، إشارة إلى قدرته(عز وجل)، كما في قوله تعالى:﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ (هود: ٥٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٢)، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ ﴾ (الشورى: ٦).

- دلالة الحفظ على العناية والاهتمام والرعاية على المحفوظ وعدم نسيانه، كما في قول إخوة يوسف(عليه السلام) لأبيهم: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (يوسف: ١٢).

فضلًا عن دلالة الحفظ على العفة والأمانة كما في قول يوسف(عليه السلام) للملك :﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ ﴾ (يوسف: ٥٥).

- كذلك دلّ الحفظ على العلم، كما في قول أخوة يوسف: ﴿ وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (يوسف: ٨١)، فنفوا عن أنفسهم العلم بالغيب من خلال

التعبير بنفي الحفظ.

ثانيًا: بتتبع مادة (حفظ) بالدراسة في سياقاتها المختلفة تجد تناسبًا عجيبًا بين هذه المواطن ومعانيها ودلالتها في السور المختلفة، حيث كوّنت صورة كلية، وهذا يكشف عن وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو (حركة المعنى)، فلو أنك أدرت اللغة كلها لاستبدال هذه المادة اللغوية بغيرها، ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وما وجدت بديلًا عنها، فتجد تكريمًا من الله(ﷻ) للإنسان الذي خلقه، وحفظ له السموات والأرض، وجعل له الملائكة الحفظة، وأرسل له رُسلًا مُبشرين ومُنذرين، فكان عليه الالتزام والمحافظة، والشكر والدعاء بالصلوات لله رب العالمين، فهكذا تجد تناسبًا وترابطًا بين هذه المعاني العليّة؛ لأنها من رب العالمين.

ثالثًا: عبَّر النَّظم القرآني بمادة (حفظ) بصيغة (اسم الفاعل) في (أربعة عشر) موطنًا، دلالة على ديمومة الوصف وثبوته في زمن يفصح عنه السياق؛ نظرًا لدلالة اسم الفاعل على الحدث وفاعله دون مبالغة.

رابعًا: عبَّر النَّظم القرآني بمادة (حفظ) بصيغة (المبالغة) في (اثنى عشر) موطنًا، إشارة إلى المبالغة في الوصف، لكون المبالغة من مقتضيات السياق، فهي أبلغ في المعنى من التعبير باسم الفاعل، مع أنها مشتقة منه، كـ التعبير بـ (حافظ) و(حفيظ)، فلا شك أن صيغة المبالغة أدل على معنى الحفظ من حافظ بصيغة اسم الفاعل؛ لكون المبالغة فيها تمرُّس على جهة الحفظ، وأكثر حرصًا على المحفوظ.

خامسًا: عبَّر النَّظم القرآني بمادة (حفظ) بصيغة (المصدر) في (أربعة) مواطن؛ لدلالة المصدر على الحدث مع التجرُّد من الزمن وفاعله، والسياق يقتضي ذلك، فهو أبلغ من غيره في موطنه.

سادسًا: عبَّر النَّظم القرآني بمادة (حفظ) بصيغة (اسم المفعول) في (موطنين فقط)؛ لكون المفعول ما وقع عليه الوصف أو الحدث.

سابعًا: عبَّر النَّظم القرآني بمادة (حفظ) بصيغة (الفعل الماضي) في (ثلاثة) مواطن؛ إشارة إلى وقوع الحفظ من فاعله في الزمن الماضي، مع كينونة الحفظ دون انقطاعه.

ثامنًا: عبَّر النَّظم القرآني بمادة (حفظ) بصيغة (الفعل المضارع) في (سبعة) مواطن؛ دلالة على تجدد الحفظ وحدوثه من فاعله، كالمحافظة على الصلاة وغيرها.

تاسعًا: عبَّر النَّظم القرآني بمادة (حفظ) بصيغة (فعل الأمر) في (موطنين فقط)؛ دلالة على الحث والالتزام بشأن المأمور به والمواظبة عليه، وعدم نسيانه؛ لما في الأمر من التنبيه وتحريك الجوارح، كالأمر بالمحافظة على الصلاة، وحفظ الأيمان.

عاشرًا: كان للقراءات القرآنية أبلغ الأثر في إثراء المعنى والدلالة من خلال تعدد القراءات ووجوه تأويلها، فتتسع دلالة المعنى القرآني من خلال تعدد القراءات.

*****

أولًا: فهرس المصادر والمراجع.

- أسباب النزول المسمى " لباب النَقُول في أسباب النزول"، للإمام الحافظ/ جلال الدين أبي عبد الرحمن السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت– لبنان، ط الأولى ١٤٢٢هـ– ٢٠٠٢م.
- إعراب القرآن الكريم، د/ محمد محمود القاضي، مراجعة: أ.د/ كمال محمد بشر، وا.د/ عبد الغفار حامد هلال، الصحوة، ط الأولى ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.
- آل حم الشورى– الزخرف– الدخان، دراسة في أسرار البيان، أ٠د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط الأولى ١٤٣١هـ– ٢٠١٠م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق: أ.د/ أحمد شتيوي، دار الغد، ط الأولى ١٤٣٧هـ– ٢٠١٦م.
- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة، تأليف/ عبد الفتاح القاضي، مكتبة أنس بن مالك، ط الأولى ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م.
- تفسير أبي السعود، المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لقاضي القضاة الإمام/ أبي السعود محمد بن محمد العماري(ت: ٩٥١هـ)، دار إحياء التراث العربي بيروت– لبنان، بدون
- تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق/ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ على محمد معوض، وشارك في تحقيقه: د/ زكريا عبد المجيد المنوفي، د/ أحمد النجولي الجمل، قرظه/ ا.د/ عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط الأولى١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.
- تفسير التحرير والتنوير" تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر،١٩٨٤م، بدون.
- تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد

الطبري، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

- تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، للإمام/ محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، المشتهر بخطيب الري(٥٤٤-٦٠٤هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي(٧٠٠-٧٧٤هـ)، خرج أحاديثه: محمود بن الجميل، ووليد بن سلامة، وخالد بن محمد بن عثمان، مكتبة الصفا، ط الأولى ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف العلامة الشيخ/ عبد الرحمن بن ناصر السعدي(١٣٠٧-١٣٧٦)، قدم له الشيخ/ محمد بن صالح العثيمي، مكتبة الصفا، ط الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- دلائل الإعجاز، تأليف الإمام: عبد القاهر الجرجانى، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني – المؤسسة السعودية بمصر ،الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، المتوفى سنة ١٢٧٠هـ ، ضبطه/ على عبد الباري عطيه، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم البيان، د/ بسيوني فيود، مؤسسة المختار، ط الثالثة ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ(معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم)، للشيخ أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، المعروف بالسمين الحلبي، المتوفى

سنة (٤٥٦هـ)، تحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- الفروق في اللغة، لأبي هلاك العسكري، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة- بيروت، ط الرابعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، ت: ٤٦٧- ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية -بيروت، ط الخامسة ٢٠٠٩م.
- لسان العرب، للإمام أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر بيروت، ط الأولى، بدون.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د/ فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر- عمان- ط الثالثة ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ، بدون.
- مع النظم القرآني في سورة النور، للدكتور/ الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة، ط الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.
- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، بدون.
- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق/ محمد سيد كيلاني، دار المعرفة ، بيروت- لبنان، بدون.
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، د/ محمد عبد الله دراز، مطبعة السعادة، ١٣٧٩هـ- ١٩٦٠م، بدون.

– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام المفسر/ برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، المتوفى سنة (٨٨٥هـ – ١٤٨٠م) ، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، بدون.

*****

ثانيًا: فهرس الموضوعات.

الموضوع	الصفحة
الملخص بالعربية.	٢٠٣٧
الملخص بالإنجليزية.	٢٠٣٨
مُقدِّمة.	٢٠٣٩
تمهيدٌ.	٢٠٤٢
المبحثُ الأولُ: **بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق أهل الإيمان.** ويشتمل على ما يأتي:	٢٠٤٤
أولًا: بلاغة التعبير عن المحافظة على الصلاة بمادة (حفظ).	٢٠٤٥
ثانيًا: بلاغة التعبير عن العفة والطهارة بمادة (حفظ).	٢٠٥١
ثالثًا: بلاغة التعبير عن حفظ الأيمان والحدود بمادة (حفظ).	٢٠٦١
المبحثُ الثاني: **بلاغة التعبير عن قدرة الله(ﷻ)، والملائكة بمادة(حفظ).** ويشتمل على ما يأتي:	٢٠٦٦
أولًا: بلاغة التعبير عن قدرة الله(ﷻ) في حفظ السموات والأرض بمادة (حفظ).	٢٠٦٧
ثانيًا: بلاغة التعبير عن قدرة الله(ﷻ) في حفظ الكُتُب بمادة(حفظ).	٢٠٧٤
ثالثًا: بلاغة التعبير عن الملائكة بمادة(حفظ).	٢٠٨٣
المبحثُ الثالثُ: **بلاغة الإخبار عن النبي(ﷺ) وبعض القصص والأمور بمادة (حفظ).** ويشتمل على ما يأتي:	٢٠٨٩

أولًا: بلاغة التعبير عن نفي وصف النبي (ﷺ) بالحفيظ.	٢٠٩٠
ثانيًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة هود(عليه السلام).	٢٠٩٧
ثالثًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة شعيب(عليه السلام).	٢٠٩٨
رابعًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة يوسف(عليه السلام).	٢١٠١
خامسًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة سليمان(عليه السلام).	٢١٠٨
سادسًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في سياق قصة أهل سبأ.	٢١١٠
سابعًا: بلاغة التعبير بمادة (حفظ) في نفي وصف أهل الكفر بالحفظة.	٢١١١
خاتمةٌ	٢١١٤
فهرس المصادر والمراجع.	٢١١٩
فهرس الموضوعات.	٢١٢٣